مكتبة
t.me/soramnqraa

إميلي نصرالله

اللّيالي الغجريّة

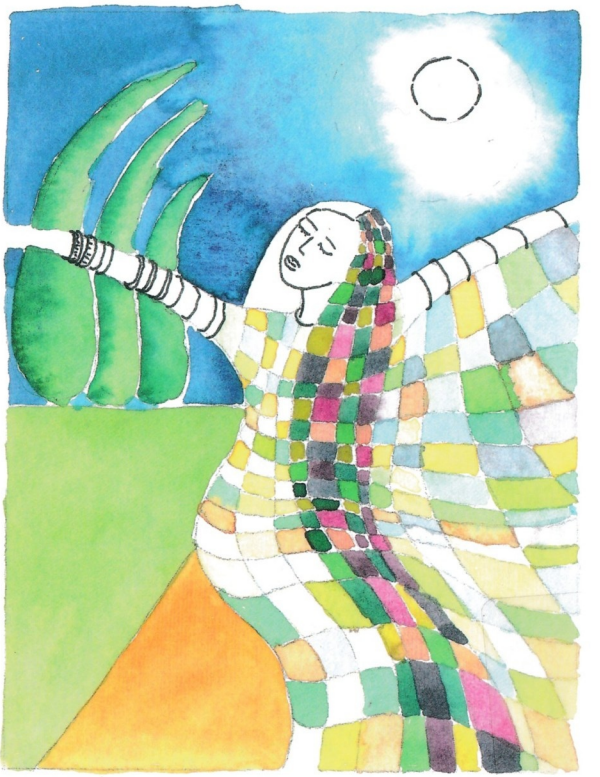

نوفل

اللّيالي الغجَريّة

إملي نصرالله

اللّيالي الغجريّة

مجموعة قصصية

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة الرابعة
صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**
طباعة: **مطابع روحانا الشمالي**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-859-4

ليلى والذئب

أوصتها أمّها، منذ أن خطَت خطوتها الأولى، على طريق الرحلة...

أوصَتها بأن تأخذ حذرها من الذئب... بل إنّ الوصايا سبقَت تلك اللحظة بزمان؛ أي حين كانت ليلى طفلة في المهد، وأمّها تُرنّم لها أشجى الأنغام، لتغفو... وتطبق جفنَيها على أحلام ناعمة.

وكانت الأمّ تُدخل بين كلّ ترنيمة، وتالية لها، كلمات جديدة، وعبارات معترضة ضمن قوسين مثل: (والذئاب تختبئ، عادة، في الغابات... تفاجئك عند كلّ منعطف... أحيانًا يرتدي الذئب وجه ثعلب، أحيانًا وجه أمير... يا ليلى، لا يغرَّنّك ذلك. عليك أن تعرفيه فورًا، وتحيدي من طريقه)...

«نامي، يا بنتي، نامي، لافرِش لك ريش نعامي»...

(ويا ليلى: حين تُبصرينه، قادمًا من المجهول، سائرًا على قائمتين، بدلًا من أربع قوائم، تأكّدي أنّه هو، داخل قناع جديد...)

مكتبة
t.me/soramnqraa

«يا الله تنام، يا الله تنام،
لاذبح لها طير الحمام...
يا حمامات، لا تخافو،
بضحك عا ليلى تتنام...»

(أحيانًا يجيء، متلبّسًا بكلّ الوجوه المألوفة. ويقترب منك. بلطف، يقترب ويُلقي السلام. يُسمعك كلامًا له مذاق العسل. احذريه.)

(إذا قال: «أنتِ جميلة»، يكون هذا الطُعم الأوّل. إذا دعاك إلى مرافقته يبدأ الخطر يهدّد حياتكِ... قد يسير معك خطوات في الفلاة، لكنّه لا بدّ من أن يجرّك إلى مغارته؛ وهناك يا ابنتي، مَن يدري ماذا يحدث؟)...

«تك، تك، تك،
يا أمّ سليمان،
تك، تك، تك
زوجك وين كان؟
تك، تك، تك
كان بالحقله،
عم يقطف خوخ ورمّان»...

(ويا بنيّة!

أحيانًا يتجاوز الغابة. يسير معك على هواكِ. يعرض خدماته. يقول: «أحمل السلّة عنكِ. أرشدك إلى السبيل. أخشى عليك من الضياع»...

يقول لك: «أنتِ صغيرة، عديمة الخبرة، والعالم شاسع، والدروب محفوفة بالخطر... أُرافقكِ»، يقول: «أكون عكّازكِ»... لا تُصدّقيه، وارفضي كلّ ما يقدّمه لك من وعود وخدمات. وإذا أمكن، بدّلي الطريق، واسلكي دربًا غير دربه...)

***

«يا الله تنام ليلى،
يا الله تحب النوم!
يا الله تجيها العوافي
وتظلّ دوم الدوم»...

(ويكون في بعض الأحيان، مختبئًا في غابة، في حفرة أو في كهف؛ ربّما تُبصرينه واقفًا فوق قمّة التلّ، عند انحدار الشير. تحسبينه ناطور الكروم، يا غالية!...

لا يخدعنَّكِ المظهر الخارجيّ. إنّه الذئب، يأتي من كلّ الطرق؛ من كلّ الأماكن يجيء. خصوصًا حين يُبصر فتاة مثلك، لها هذا الجمال، واللطف، والطيبة. حالما تبصرينه، سارعي خطاك، ولا تلتفت عيناك

إلى حيث يكون، ولا تنظري مرّة إلى الوراء. أبقي بصرك مشدودًا إلى الأمام، باتّجاه غاية الرحلة بيت جدّتك الطيّبة...

ولا تتوقّفي لتقطفي لها الزهور. أعرف ولَعَكِ بزهور البراري. أعرف مدى إغرائها، خصوصًا في هذا الوقت من السنة. تجاوزي إغراء الزهور، ذاكرة أنّ عين الذئب لا تنام، وهي ترصد حركاتك من كلّ الجهات، ومنذ ما قبل التاريخ.

لذا، كان عليكِ أن تضاعفي يقظتك وحذرك. ولا تدعي الحيلة تنطلي عليك.

آه، كم هو محتال، يا ليلى. كم هو ذكيّ، ومحتال!)

«يا حادي، يا مادي،
يا كسّار الزبادي،
كسّر جوز وفقّي لوز
واطعمها لأولادي»...

***

ليلى في أتمّ أناقتها.

قبّعتها الحمراء تُتوّج رأسها، مثل زهرة «برقوق» عملاقة. وتحتها المعطف من اللون نفسه. والحذاء المربوط بتأنٍّ. والسلّة معلّقة في كوعها. وعيناها منفتحتان، وشفتاها منفرجتان. كذلك أبقَت قنوات السمع مفتوحة، لتستوعب كلّ الكلام، وما بين الكلام والأنغام...

لم تردّ مرّة على أمّها. لم تطرح سؤالًا. ربّما شاءت أن تطرح سؤالًا، وأحجمت. وفي اللحظة التالية نسيَت الأسئلة والأجوبة وظلّت متذكّرة شيئًا واحدًا:

– لحظة الانطلاق.

إنّها مشتاقة كثيرًا إلى رؤية وجه جدّتها. لكنّ شوقها تضاعف، الآن، إلى المغامرة. أمّها فتحَت لها كلّ الأبواب الموصدة، في الداخل والخارج، ودعَتها إلى المسير.

***

وهي الآن في الطريق. تقفز مرحة. تُنشد بصوت خافت. تتصادم أصداء نغمها مع زقزقة العصافير، فوق أشجار البستان. سوف تسارع خطاها، وتنطلق، كالسهم إلى الهدف... تمامًا، مثلما أوصَتها أمّها. مثلما حلمَت طوال الليلة الفائتة.

سلّتها مملوءة بالكعك، والحلوى اللذيذة، من إعداد يدَي أمّها. وقد ملأت بطنها جيّدًا، فزادَت فرحتها. وتابعَت سيرها، قفزًا مرِحًا.

***

وطريقها لولبيّ، يمرّ وسط الغالة. ليس في الإمكان تجنّب ذلك. وصايا أمّها تتمشّى تحت جلدها، ويسبقها الصوت ممتزجًا بذرّات الأثير:

– احذري الذئب يا ليلى. كوني يقظة أبدًا...

و... الذئب يأتي، من كلّ الجهات. ويرتدي شتّى الوجوه، ماذا تقول أمّها؟

لا ذئاب، في هذه الغابة، حيث تتعانق أغصان شجر الشربين والسنديان.

هنا، تقيم العصافير اللطيفة. ترسل زقزقاتها فتمجّد الخالق. ومن قلب الغاب تسمع أصداء موسيقيّة من نوع آخر، حين ترتطم الرياح، بسيقان القصب والغزار، فتؤلّف موسيقى سماويّة.

لا... هذا المكان الآمن، مأهول بالوداعة والجمال والنغم العذب، ولا مكان فيه للذئاب.

***

وهي الآن، في منتصف الطريق. انعطف بها دربها، وتقدَّمَت صوب السهول المنبسطة خضراء تُرصّع صدرها الأزهار من كلّ لون... هذه أزهار البريّة المألوفة: السكوكع، والنرجس، شقائق النعمان والياسمين البرّيّ.

وتغمزها أعين الزهر بإغراء. وترفع إحداها الرأس، ليصبح في مستوى سمع الفتاة وتهمس في أذنها:

– خذيني معك.

تتوقّف ليلى والدهشة تعقل لسانها: زهرة، وتتكلّم!...

– ماذا تقولين؟

تسألها، غير مصدّقة. فتكرّر الزهرة، المنفتحة كعين الرحمة؛ تكرّر طلبها بما يشبه الابتهال:

– خذيني معك. اجعليني رفيقة دربك. سئمتُ الإقامة وسط هذا المكان الجامد.

وتردّ ليلى:

– عجيب كلامك. لستِ وحدكِ هنا... وحولك رفيقاتك الأزهار. والنبات من كلّ صنف. ثمّ هناك الغابة وسكّانها الطيّبون. وتزورك النسائم من كلّ الجهات، لماذا لا يكون هذا العالم ممتعًا؟

افترّت بتلات الزهرة عن شبه ابتسامة، وقالت بأسى:

– أنتِ لا تفهمين حياة الزهور، لا يمكنني أن أتّخذ أيّ قرار. تُملى عليّ الإرادات من كلّ صوب، وأتلقّى. وأنا عاجزة عن الانتقال. عن التحرّك من مكاني إلى موضع آخر. انظري كيف تثبّتني جذوري في أعماق التراب.

انحدَرَت ليلى بنظرها حتّى أسفل الجذع، واكتشفَت أنّ ما قالته الزهرة صحيح. لذا رفعَت إليها عينين منكسرتين، وقالَت:

– كلامك صحيح. لا يمكنك الخروج من ارتباطك بالتراب.

– إذن، خذيني إليك...

كرَّرَت الزهرة طلبها، فأثارت في صدر الفتاة شعورًا غريبًا، دفعَها إلى الانحناء وقطع الساق الدقيقة... وما إن فعلَت ذلك، حتّى هدر في

أذنيها صوت الرعد. ارتجفَت خوفًا، وتراجعَت خطوتين إلى الوراء، قبل أن تقرّر ماذا عليها أن تفعل.

لكنّ الزهرة المنتفضة بين أصابعها دفعتها إلى اتخاذ القرار:

– أسرعي، لنهرب، قبل أن ينهمر المطر. إنّها عاصفة رعديّة مقبلة من الجهة الغربيّة... أسرعي.

– وماذا عن رفيقاتك؟

سألَت ليلى، وقد خالجها شعور بالشفقة على الزهرات الصامتات. ولم تسمع من زهرتها أيّ جواب. فقرَّرَت أن تطوف بنفسها، لتبحث عمَّن تريد مرافقتها.

وهكذا تابعَت قفزها الرشيق، وجمعَت بضع زهرات، جعلتها باقة بحجم راحة يدها.

وفكَّرَت في أنّ هذه ستكون هديّتها للجدّة. ونسيَت السلّة المعلّقة بكوعها.

***

تفجَّر الرعد من جديد.

رفعَت ليلى نظرها إلى الفضاء، فأبصرَت الغيوم الرماديّة، تتسابق في الجوّ، وكأنّها تلاحق فلول جيش فارّ... وفكَّرَت في أنّ عليها أن تصل إلى دار الجدّة قبل أن تُفرغ السماء غضبها.

ثمّ التفتَت إلى الزهرات تطمئنهنّ:

– بعد قليل نبلغ بيت الجدّة وهناك، أضعكنّ في زهريّة من بلّور، وأروي سيقانكنّ بالماء النظيف... بعد قليل، نبلغ نهاية الرحلة.

***

لكنّ العاصفة لم تُمهل، وظلّت تشقّق صدر الفضاء. وراحَت المياه تتدفّق بغزارة، فتغمر السهول والحشائش، وتُغرق ما بقي من الأزهار.

وانهمرَت المياه الغزيرة فوق رأس ليلى، وكانت العاصفة قد عرّته، حين انتزعَت القبّعة الحمراء، وقذفَتها بعيدًا عن مدى الرؤية. وانهمر المطر فوق السلّة المملوءة بالكعك والحلوى، فاختلَطَت فيها الأشكال والألوان. وهذا ما أخاف الفتاة، ودفعها إلى الجري بسرعة، لعلّها تُنقذ ما تبقّى.

***

قبل أن تَبلغ دار جدّتها، سمعَت ليلى وقع قدمين، فعلِمَت أنّ هناك مَن يتعقّبها. وتساءلَت إذا كانت أمّها قد أرسلَت ابن الجيران، ليُساعدها.

التفَتَت إلى الوراء لتُناديه، فأبصرَت مخلوقًا، لم تقع عينها على شبيه له من قبل؛ كان يرتدي معطفًا تكنُس أطرافه الأرض، ويعتمر قبّعة سوداء تغمر رأسه، وتهبط لتغطّي أذنيه، وجزءًا من عنقه. وقد حجب عينيه بنظّارتين سوداوين، تُخفيان ثلاثة أرباع وجهه.

ارتعـدَت فرقًا. وشـاءَت أن تسأل هـذا المخلوق العجيب، مَن يكون؟... وهل هو الذئب، أم رسوله؟ أم عدوّه؟ أم...

***

لم يترك لها الفرصة. اقترَب بقامته الشامخة، بصوته اللطيف، الناضح إغراء وشهوة؛ وبلمساته الناعمة، الناعمة، مرّر أصابعه فوق وجهها وهمس سؤاله:

– ما اسمك، أيّتها اللطيفة، الجميلة؟

– ليلى.

قالَت، وهي غير واثقة بما إذا كانت قد ارتكبَت خطأً بإفشاء هذا السرّ.

لكنّه لم يُعطها الفرصة، كي تُحاسب ضميرها؛ راح يطرح أسئلته... يرشقها بها كزخّات البرد:

– من أين جئتِ؟ وإلى أين تذهبين؟ مَن اشترى لك هذا المعطف الجميل؟ مَن غرس في وجهك هاتين العينين النرجسيّتين؟ ومَن حفر في وجهك هذا الفم العسليّ، ثمّ غرس فوقه الأنف الأشمّ؟... وشعرك، يا جميلة!... هذا المتهدّل على كتفيك كسنابل القمح... من أين جئت بهذا الجمال كلّه؟

أدركَت ليلى أنّها أمام مخلوق لا يشبه أحدًا من الأشخاص الذين عرفتهم في محيطها... وتساءلت:

– أوَيكون هذا الذئب؟ وتذكَّرت كلام أمّها، وتحذيرها، ووصاياها... لكنّ صدى الكلام ظلّ بعيدًا عن حاضرها.

إنّها أمام وضع يتعدّى كلّ التوقّعات وعليها أن تتّخذ القرار، وتواجه الواقع بشجاعة. لذا رفعَت رأسها وأطلقَت السؤال:

– وأنت... مَن تكون؟ ما هو اسمك؟

– «أبو كاسب».

صمتَت ليلى، وقد أربكها الجواب، ثمّ عادَت تقول:

– لم أسأل عن اسم ابنك. أريد أن أعرف اسمك أنتَ. الاسم الحقيقيّ.

– نعم، هذا هو اسمي الحقيقيّ. والبعض يدعوني «أبو جعدة». يمكنك أن تختاري منهما الاسم الذي يعجبكِ.

عادَت إلى صمتها، وارتباكها. أمّها لم تخبرها كيف تتصرّف في الخطوة التالية. ربّما لم تحسبه ذكيًّا إلى هذا الحدّ، يخترع الأسماء، ويرتديها مثلما يرتدي قناع وجهه.

وفكَّرت في أنّ أفضل وسيلة تعتمدها هي المواجهة الشجاعة، لذا سمعَت شفتيها تتمتمان:

– لا أصدّق. أعرفك مَن تكون... أنتَ الذئب. أمّي أخبرتني. حدّثتني عنكَ قبل أن أبدأ الرحلة.

فقال محتالًا:

– لن أعارضك. اختاري من الأسماء، ما يروقكِ. ذلك لا يهمّ ما دمتِ، لطيفة، طيّبة، وجميلة. لكنّك لم تردّي على سؤالي: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

– إلى دار جدّتي.

– وجدّتك، هل تقيم بعيدًا من هنا؟

– كلّا... هناك منزلها، داخل تلك الحديقة.

ومدَّت إصبعها بسذاجة، تُشير إلى المكان.

وعاد يسألها:

– وجدَّتكِ، تُقيم وحدها؟

– نعم. وأنا ذاهبة كي أُسلّيها. أحمل إليها سلّة كعك وحلوى. وباقة أزهار بريّة.

***

اقترب منها أكثر، ومدّ يده إلى السلّة، فغاصَت في مزيج رخو:

– لم يعد هناك كعك، ولا حلوى، انظري!

وفتح أمام عينيها يده المغمّسة بالسائل الدبق، حيث اختلَطَت الحلوى بالكعك.

انهمرَت الدموع من عينيها وقالت:

– الحقّ على العاصفة الراعدة.

ربَّتَ كتفها محاولًا إعادة الهدوء إلى نفسها:

– أمّـكِ لا تحسب حساب العاصفة... ثمّ قولي: كيف تركَتك تخرجين وحدك؟... والغابة مسكونة بالذئاب والوحوش المفترسة؟

أجفلَتها كلماته. ونظرَت إليه بطرف عينيها، فلم تلمح أيّة علامة من علامات السخرية. كان مخلصًا في كلامه. ولكي يؤكّد إخلاصه، مدّ أنامله، وراح يمسح دموعها ويتمتم بحنان:

– اطمئنّي، سأبقى معك، ولن أتركك.

شعرَت بارتياح يتمشّى في عروقها. ومـدّت يدها، كي تصافح يد محدّثها، وتشكره، ثمّ تتابع مسيرها. لكنّه تطوّع بإتمام معروفه، ومرافقتها حتّى نهاية الطريق. وعبّر عن اندفاعه عمليًّا، حين لفّ ذراعه حول كتفها، ودعاها لتسير بقربه، وتعتمد عليه.

***

سارَت إلى جانبه، ترشف أذناها كلامه العذب، وحكاياته النادرة، ونسيت كلام أمّها. بل راحَت الشكوك تُساورها، وهي تتذكّر، أنّ أمّها خدعَتها. وغرَسَت في صدرها خوفًا لا مبرّر له. كيف أخافتها وفي الغابة مثل هذا المخلوق، اللطيف حتّى الانكسار، الدافئ الهمس، الرقيق اللمسات، والحاضر لحمايتها وردّ الخطر عنها؟ كيف تجهل أمّها هذه الأمور عنه؟

***

وقبل أن تبلغ ليلى دار جدّتها، كانت قد تعرَّفَت إلى رفيق الرحلة وارتاحَت إليه. وأعلنَت الثورة على أمّها، وعلى تعاليمها «العتيقة»، وارتَمَت في دائرة رسمها الذئب حولها، ثمّ أحاطها بالسياج الكثيف؛ ولم تعد تُبصر من الوجود سواه، ولم يعد ينفذ إليها من وجوه الناس، سوى وجهه، وقد راح ينطبع تدريجيًّا في سواد عينيها، ويتحوّل، في ذاتها إلى رسول للخير والحبّ والجمال...

***

وضعَت السلّة بقربها. وقذفَت باقة الزهور إلى الأرض المستحمّة برشق المطر. وتمدَّدَت فوق مقعد حجريّ، تُريح جسدها من تعب المسير. وانتشر الضباب حولها، ثمّ لم تلبث ظلمة المساء أن حلَّت على الكون، وأوصدَت الأبواب.

وكان يُفترض في الصغيرة، أن ترتعد خوفًا، أو تتألّم من وخز الضمير لانحرافها عن هدف الرحلة. لكنّ الذئب، قربها، يملأ كلّ فراغ بحضوره...

***

وبينما كانت العاصفة تتابع ثورتها، فتجتاح الغابة والسهول، وتحطّم أغصان الشجر، كان الهدوء والطمأنينة والفرح وعناصر الأمن كلّها تغمر ليلى وتمحو، شيئًا فشيئًا، ما بقي عالقًا في الذاكرة، من بداية ذلك اليوم الجديد.

الحلقة المفقودة

ودَّعَت أمّي دُنياها باكرًا. كنتُ حوالي السادسة من عمري، وهي في مطلع العقد الثالث. ولم تخلّف من آثارها سواي، وبضعة فساتين، تختلف في قياساتها، وألوانها وتصاميمها.

وكانت جدّتي تشرف على تعليق تلك الفساتين في خزانة خاصّة، وتُعنى بها، وكأنّها من الكنوز النادرة!

وكنتُ أُلاحظها، كلّما فتحَت الخزانة أو أغلقتها، وأسمعها تتمتم كلماتٍ غامضة، وغير مفهومة، تسيل في إثرها الدموع من مآقيها، سخيّة تغسل الخدّين، قبل أن ترشح من أسفل ذقنها لتبلّل الأرض.

ولكي تهرب من دموعها، كانت تهرع إلى غرفتها، حيث تُقيم في الوحدة والصمت، إلى أن تطرق بابها جارة أو قريبة، فتنهض، وتستقبلها بابتسامة محتفظة بطعم الدموع.

لم تكن جدّتي تحفظ في تلك الخزانة الموروثة عن الوالدة، سوى الفساتين التي ذكرت. وهي تخصّني وحدي. لكن هذه الخصوصيّة لم

تُدخل البهجة إلى نفسي؛ فقد ظلَّت أعماقي في حرقة الشوق إلى مَن صنعَت تلك الفساتين، ثمّ رحلَت...

إلى أمّي.

وبقي وجهها العذب محفورًا في الذاكرة، بكلّ ما يحمل من دفء ومحبّة وحنان.

أذكر منها الآن، وحتّى نهاية العمر، عطر الأنفاس، وذلك الأريج الطيّب، يهفّ إليّ ويُغلّف كياني، كلّما احتواني حضنها.

وكان حضنها أمني الذي فقدتُ. ومن بعدها، عشتُ القلق والحرمان. وعرفتُ طعم اليُتم، ومرارة الوحدة. وصرتُ أتحرّك بين رفاقي، من دون أن تكون لي الجرأة على الاقتراب منهم؛ وألزم الصمت، كلّما ذكروا أمّهاتهم. أو أهرب إلى أقرب الزوايا، لأُفرغ دموعي في السرّ عنهم.

***

وجدّتي؟

مسكينة تلك الجدّة!

ماذا أقول عنها، وهي لم تدّخر جهدًا لإرضائي، وبذلَت كلّ ما في وسعها، لتُعنى بي، كأفضل ما تكون العناية. أخفَت عنّي أتراحها، ونشرَت أمام عينَيّ مظاهر الفرح... حجبَت دموعها خلف جدران غرفتها، وأطلَّت عليّ بالتهليل والبسمات... ودفنَت حزنًا ينهش حشاها، وأخرجَت تلك الفساتين الملوّنة، والمزخرفة بالـ«دانتيل»

وشرائط «الساتان»، وراحَت تلفُّ بها جسمي الضئيل. وتحوّل، بواسطتها، كياني الجامد، إلى كتلة من الجاذبيّة والمرح.

***

هذا ما يتراءى لي الآن، من بَعد عشرات السنين.

إنّما الوضع لم يكن بتلك البساطة، في حينه؛ فالأثواب الجاهزة كانت مقبولة، ومتلائمة مع القدّ والموضة في السنوات الأولى من طفولتي، لكنّها تحوَّلَت إلى ثقل يشدّني إلى أعماق الحزن والصمت، حالما نقلتُ الخطى باتّجاه سنوات المراهقة؛ حين بدأَتِ الرفيقات مضايقتي وإزعاجي بملاحظات لا تخلو من القسوة والخبث. وانهمَرَت أسئلتهنّ الشرسة تُعرّي روحي من مناعتها:

– مَن خاط لك هذا الفستان الطريف؟... أين، وكيف عثرتِ على تلك الخيّاطة النادرة، يا سناء؟

وكنتُ أُجيبهنّ، بإخلاص، واختصار، ومثلما علَّمَتني الجدّة:

– أمّي... هي أعدَّت لي ثيابي كلّها.

ويُثير الجواب أسئلة جديدة:

– أمّك؟ لكنّها متوفّاة، أمّك...

وتتدخّل ثانية وثالثة؛ ويتحوّل الحوار إلى تجربة قاسية للقلب والروح؛ فتنهمر الدموع قسرًا عنّي. وأهرب تاركة خلفي أصداء العبث والسخرية.

وكنتُ أخشى، إن نقلتُ آلامي إلى جدّتي، أن أتسبَّب في مضاعفة أحزانها؛ لذا تابعتُ صمتي، وداريتُ أحزاني في السرّ، وبعيدًا عن ملاحظاتها.

لكنّ الصمت لم ينفع؛ والحزن يتفشّى مثل بقع الزيت، وأحيانًا يطفر من كلّ نافذة تطلّ على الذات. أو يتغلغل عميقًا في الكيان؛ وهذا ما حصل بالضبط. وتحوَّلَت أحزاني الدفينة إلى سُقم أعيا الطبيب، فراح يصفُ لي الأدوية والمقوّيات، وهو يجهل أنّ العلّة تنام مرتاحة في تجاويف القلب.

***

وكان القلب صغيرًا. وقويَت عليه الأحزان. وطغَت عليّ الوحدة، فلم تعد رفيقات المدرسة أو الحيّ، هنّ الرفيقات.

صرتُ أهرب من حضورهنّ، وأُصمّ أُذُنيّ عن سماع كلامهنّ، حتّى في أرقّ حالات عرضه. وأصبحَت كلمة «يتيمة» مخرزًا ينخر دماغي ويدفعني إلى التحدّي، وإلى الغضب.

في البدء، رحتُ أصبّ جام غضبي على أمّي، التي رحلَت وخلّفتني بعدها، للعذاب. وتمنّيتُ لو ألحق بها؛ فقد أجد قربها طمأنينة حُرِمتُها مع رحيلها المبكر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمّ انتقلَت نقمتي إلى أبي الذي تركني في حضن الجدّة، ليبني له حياة جديدة، برفقة امرأة أحلَّها محلّ أمّي. ومن بعد، تحوَّلت نقمتي إلى تلك الخزانة. وما تحويه من أثواب.

***

– لماذا خاطَت أمّي تلك الفساتين كلّها؟...

طرحتُ سؤالي الغاضب على جدّتي، وفاجأها السؤال. وأربكَتها نبرة صوتي، فاستلَّت أقرب الكلمات تردّ بها على التحدّي:

– من أجلك، يا عزيزتي!

– لكنّني أكبر سنة بعد سنة، كما ترين... فكيف؟... كيف كان لأمّي أن تُقدّر مقاس جسمي، خلال السنين؟

تلعثمتِ الجدّة. وصمتَت قليلًا قبل أن تُجيب:

– هي أمّك ووالدتك. مَن مثلها يعرف أسرار جسمك؟

كان جوابها ضعيفًا، ولم يُقنعني.

في الحقيقة، أنّ جدّتي لم تتوقّع أسئلة من هذا النوع. أبصرتُ شفتيها ترتعشان. ثمّ تسرّبت الرعشات إلى أطراف أصابعها، وتغلغلَت في كلماتها:

– أنتِ اليوم صبيّة، تُقدّرين الأمور. أنتظر منك أن تُدركي المعنى الذي قصدَته أمّك، حين أعدَّت لكِ تلك الفساتين... أرادَت أن تُرافق خطوات نموّكِ... وأن تكون حاضرة إلى جانبكِ، حتّى في غيابها عنك. ولم يكن لها من وسيلة تُعبّر بها عن مشيئتها أفضل من شُغل أناملها.

حالما أدركَت خطورة مرضها، راحَت تعمل، مثل نحلة مجتهدة، في الليل قبل النهار. وظلَّت تخيط، والناس يتساءلون: «لماذا تُرهق نفسها في الخياطة؟»... وكان الطبيب، كلّما زارها، يحاول ردعها بقوله: «خفّفي من الجدّية، وانصرفي إلى التسلية والمرح»... وهي لا تُصغي. ولا تُعير الكلام انتباهها؛ وظلَّت تُغرق آلامها عند مغارز الإبر، ولا تخلد إلى الراحة إلّا بعد أن تتلاشى من شدّة الإعياء... وأنا، كنتُ أُراقبها وقلبي يتفطّر ألمًا، ولا أنبس بحرف. غير أنّي شعرتُ براحة عظيمة تتمشّى في أعماقي، لأنّها وجدَت خير وسيلة، كي تُعبّر لكِ عن حبّها... ولمّا انتهَت أمّك من خياطة الثوب الأخير، كان المرض قد أرهق منها الجسد، ولم يعد في إمكانها التقاط الإبرة بأطراف أصابعها. لكنّها ألقَت نظرة على كومة الثياب الجميلة والزاهية بحلاوة الألوان، وقالت لي: «أمانة في عنقك، يا أمّي... تسلّمينها إلى سناء، ثوبًا، ثوبًا»... وأنا حفظتُ الوصيّة، بأمانة...

***

جدّتي...

مسكينة جدّتي!

أدَّت المهمّة على أفضل وجه، وبلَّغتني الرسالة. وأنا، ما كنت لأثور في وجهها، وأُفجّر سخطي على مسمعها، لولا تلك الكلمات المسنّنة، التي تسرّبَت إليّ من النافذة المفتوحة...

كنتُ في إحدى غرف المدرسة، أُعدّ دروسي لليوم التالي، وأصغي، على الرغم منّي، إلى صدى أحاديث الرفيقات اللاهيات في الحديقة. وفجأة طرق سمعي صوت ناشز يخرج على سائر الأصوات ويخترق أُذُنيّ:

– تبدو مثل دمية الخِرَق.

وردّ صوت آخر:

– هذا ظلم لأناقتها... إنّها تبدو مثل دمى القرون الغابرة.

وانتهى الحوار بقهقهات فاجرة، نفذَت إلى أعماقي واستقرَّت منها في الصميم.

حملتُ غضبي، وعدتُ إلى البيت، ثمّ دخلتُ غرفة الجدّة، من دون أن أقرع الباب:

– إلى متى، سأظلّ أرتدي فساتين مضحكة؟...

خرج السؤال صرخة دامعة، جعلَت الجدّة تقفز من مقعدها، ثمّ تقترب منّي، مادّة ذراعيها، في محاولة لاحتواء غضبي؛ لكنّي تجاوزتُ حركتها، وعدتُ أسأل بإلحاح:

– إلى متى؟... قولي!

لم أكن في حاجة إلى أن أشرح لها سبب ثورتي وغضبي. بل ربّما كانت تتوقّع ذلك منّي، لذا سمعتها تُتمتم وكأنّها تخاطب نفسها:

– كبرتِ... يا ابنتي، كبرتِ، والثوب الذي كان، حتّى الأمس القريب، رباط الحبّ والحنان، أصبح قيدًا للروح، وسجنًا للجسد. ومن

قبل، كان هذا الثوب ذاته، القبلة النديّة، واللمسة الشافية والمحبّة التي لا تطلب شيئًا لذاتها...

قالت جدّتي كلامها ذلك، ثمّ اقتربَت تغمرني بساعديها، وتُربِّت خدّي وهي تقول:

– إفعلي الآن ما تشائين، أمّا أنا، فقد كنتُ أمينة على وصيّتها...

ولم تنتظر تعليقي على كلامها. خرجَت من الغرفة، وتركَتني غارقة في بئر أحزاني.

تركَتني كي أتّخذَ القرار بنفسي، بعيدة عن تأثير عواطفها. وهكذا قرّرتُ أن أُقفل الخزانة، على ما فيها، بلا ندم أو تأنيب ضمير. ولم أجرؤ على أن أذهب أبعد من ذلك، فأتبع وَحْيَ ثورتي في أقصى مداها، وأُخرج الأثواب أمزّقها أو أحرقها.

اكتفيتُ بإغلاق الباب على الماضي، وخرجتُ أواجه شمس نهار جديد. وظننتُ أنّ الحكاية انتهَت عند هذا الحدّ، ولم أحسب، مثلما فعلَت هي، حساب الأيّام المقبلة...

***

وها أنا أسير، في الدهاليز المظلمة، والتي تقود إلى تلك الزاوية المنسيّة في قبو الدار. صوت ابنتي يتردّد في سمعي، بل يجلدني كالسوط:

– يجب أن تكون عندك فساتين قديمة... مُدّخرة من أيّام زمان...

وأصداء الذكريات تُسابق خطواتي وتغرس في ذهني كلمات:

– يجب أن تكون هناك فساتين قديمة... في صندوق عتيق، في خزانة مهملة، في مكان ما...

أجل! مهملة جدًّا تلك الخزانة المقيمة بصبر، في عزلة المكان. بابها مُقفل بإحكام، ومنذ ثلاثين سنة... ومفتاحها يعلوه الصدأ.

وصوت ابنتي يُمعن في الإلحاح، ويتحوّل إلى رعدة تتمشّى في مفاصلي، ويدي تمتدّ، لتُدير المفتاح...

أسمع الصرير. من أعماق الذاكرة، يتصاعد ويختلط بصوتها. وأستجمع قواي، أصبّها في سؤال طائش:

– ولكن لماذا؟... لماذا تريدين الفساتين القديمة؟ هل لدور في إحدى المسرحيّات؟

تقهقه ابنتي، مستدعية ذكرى قهقهات بعيدة، تسرَّبَت إلى أُذُني المراهقة من نافذة الصف، وقبل ثلاثين سنة على وجه التقريب، وتردّ:

– لا علاقة للمسرح بسؤالي. شئتُ، فقط، أن أتمشّى مع آخر صرعات الموضة الحديثة!...

ينفتح باب الخزانة بعد جهد. تسبقني يد ابنتي إلى الداخل، وتروح تنبش الفساتين المعلّقة، وكلّما أخرجَت واحدًا منها، أرسلَت شهقة إعجاب:

– كنز هذا!... إنّك تخبّئين كنزًا، ولا تدرين.

***

تركتُها، تكتشف الكنز، بل الكنوز المعتّقة في الخزانة المنفيّة.

وخرجتُ من البيت، ثمّ رحتُ أسير في الشارع، وحيدة، بلا هدف، أو قصد، يطاردني شعور موجع بأنّي تحوّلتُ، في تلك اللحظة، إلى حلقة مفقودة، من ذلك العقد الزمنيّ العجيب...

الأميرة وظلّها

بدأَت القصّة حين خرجَت تلك العبارة العسليّة من فم إحدى تلميذاتها:

– كم تشبهين الأميرة غريس، يا آنسة!...

وعلَّقَت تلميذة أخرى:

– أجل! الشبه بينكما كبير جدًّا... حتّى في تسريحة الشعر...

وسرى في الصف همس مرح:

– الأميرة غريس... معلّمتنا!...

وافتعَلَت هي الجدّ كي تُعيدهنّ إلى جوّ الدرس.

***

كان ذلك لقاءها الأوّل مع طالبات الصف النهائيّ، وتجربتها الأولى في تدريس الأدب العربيّ.

وارتدَت، للمناسبة، ثوبًا عاديًّا وسرَّحَت شعرها ببساطة، وحشدَت كلّ ما زوَّدَتها به الجامعة، لتترك انطباعًا جيّدًا في نفوس الطالبات، ومن أوّل الطريق.

ولم تنسَ أن تتأبّط وصيّة المديرة: «إنّ هذا الصفّ ليس سهلًا، ونسبة الذكاء بين الطالبات عالية جدًّا».

نسبة الذكاء!...

يحاولنَ امتحانها منذ البداية!...

لا، لن تسمح بذلك، فهي ليست طفلة. لقد بلغَت الخامسة والعشرين قبل شهرين، وتعلَّمَت من الحياة دروسًا قاسية. ولن تدع فتيات مراهقات ينثرن السخرية على مسمعها...

وهكذا تجاهلَت الأقوال الهامسة والصاخبة، وركَّزَت على موضوعها بحماسة.

لم تفتها نظرات خبيثة لبعض المناوِرات اللواتي تابعن المحاولة، كي يفشل الدرس، وينجح الحوار العاطفيّ.

وحين قرع الجرس، معلنًا انتهاء الحصّة، تنفَّسَت هي بارتياح، ووعدَت نفسها بأن تجعل المسافة الفاصلة بين الدرس الأوّل، وما يليه، مرحلة استعداد للمواجهة.

***

وبرغم ذلك، ظلَّت العبارة الأولى من فم تلك الطالبة، تطنّ في أذنها، وترافق خطاها.

وبقيَت معها حين عادَت إلى غرفتها، في المساء؛ فهرعَت إلى المرآة، ووقفَت أمامها وقفة طويلة، تستعرض فيها ملامحها. ودهشَت لمّا رأت: الوجه الذي أطلّ عليها من المرآة، هو غير الوجه الذي ألِفته

منذ ربع قرن؛ فهو يحمل ملامح ذلك الوجه الأرستقراطيّ الجميل والشعر، وشمخة الرأس، وشهقة العنق، ورشاقة القد...

إذًا، كلام الطالبات لم يكن سخرية خالصة، بل ينطوي على الكثير من الحقيقة. وهذا التشبيه، إن كان يعني شيئًا، فإنّما يعني محبّة الطالبات وإعجابهنّ بها.

***

لكنّ المسألة لم تعد بينها وبين الطالبات، بقدر ما هي مع تلك المرآة.

بدَّلَت ثوبها النهاريّ، وارتدَت ثوبًا آخر يليق بالخروج مع خطيبها. وكان عليها أن تقف أمام المرآة، لتُعيد ترتيب شعرها، وتجديد زينتها. وذُهلَت حين أبصرَت الملامح تميل وتتحوّل، وكأنّما هناك قوّة خارقة تتدخّل لمصلحة الأميرة.

وذُهلَت أكثر، حين أبصرَت الشاب، المعجب والساعي إلى الزواج بها، يغادر السيّارة، ليفتح لها الباب ثمّ ينحني فيُقبّل يدها وهو يردّد:

– تبدين أشبه بأميرة!

ابتسمَت مُحرجة ولم تعلّق. وجلسَت قربه، ومضى يقود سيّارته، مخترقًا بها شوارع العاصمة، إلى المطعم الجميل على شاطئ البحر.

كانت في أثناء الحديث، تراقبه بطرف عينها، فتُبصر أحيانًا وجهه الحقيقيّ، وفي بعض المرّات، كان يبدو لها شبيهًا بالأمير السعيد الذي تزوّج غريس.

لكنّها صرفَت ظنونها خشية أن تعود إلى الأميرة وتغيب عن حقيقة واقعها: إنّها فتاة من عامّة الشعب، بل ومن العامّة الفقيرة، وهذا الشاب الساعي إليها، ليس أميرًا... وقد اشترى سيّارته المستعملة كي يتنقّل فيها بين المعاهد العديدة حيث يدرّس. وهو مثلها، عصاميّ، يجتهد ليبني حياة أفضل من حياة أبيه، الذي قضى عمره يعارك الأرض ليبذر حبوب الحنطة.

***

قال لها وهو يجلس قبالتها في المطعم، من دون أن يرفع عينيه عن وجهها:

– إنّك متألّقة كنجمة.

فابتسمَت مرتبكة:

– إنّه العمل، يغرس حماسة جديدة في نفسي.

اكتفَت بهذا القدر من الشرح، خشية أن يزلّ بها اللسان، فتسرد له ما حدث مع الطالبات. ثمّ نشرَت ابتسامتها، حاجزًا يصدّ كلّ كلام.

تناول رفيقها قائمة الطعام وقدّمها إليها أوّلًا. فغرزَت فيها عينيها، وشعرَت بأنّ الكلمات تفرّ منها وتهرب... ولكي تتخلّص من وضعها، أعادَت إليه القائمة وهي تردّد:

– أتّكل عليك في اختيار الطبق الذي تريده... لكلينا.

كان هو أيضًا، يتلمّس طريقه إلى عالمها. فلم يمضِ على خطبتهما سوى أيّام معدودة. ومع أنّها وجدَت فيه الرجل المثاليّ، ظلَّت تشعر بأنّ فكرة الزواج لم تختمر في نفسها.

أمّا اليوم، فهي تبصره بعينها الجديدة. بما انفتح بين عينيها من طاقات الوعي: جبينه الناهض يشبه جبين أمير. ابتسامته والحنان المتدفّق من عينيه!

غريب! كم هو شبيه به، برغم بُعد المسافة!

ولاحظ هو سهوها، فحاول أن يطرح سؤالًا، ثمّ تراجع مستعيضًا من الكلام بابتسامة طيّبة:

– إذن، تحبّين التدريس؟

– أجل!...

ردَّت باختصار. ولم تجد كلامًا تضيفه فتابع:

– أمّا أنا، فأجد في هذه المهنة جسرًا أعبره إلى المستقبل... لكنّ ذلك لن يُشكّل نقطة خلاف بيننا...

***

وصوب المستقبل تابعا المسير، إنّما على خطّين متوازيَين. فحالما تخرّج من كلّية الهندسة، غادر بيروت، ورفضَت هي أن ترافقه. وعند ذلك المفترق انفصلا...

ثمّ علمَت أنّه تزوّج، وأسّس شركة كبرى، وبقيَت هي تتابع السير على خطّ اختارته بملء إرادتها.

***

ومنذ ربع قرن، وهي تدرّس الأدب العربيّ، لطالبات الصفّ النهائيّ. وكلّما التقَت فوجًا جديدًا، تسمع التعليق إيّاه:

– إنّك تشبهين الأميرات يا آنسة!...

وباتَت تكتفي بابتسامة غامضة، وتتابع عملها، من دون ارتباك أو خجل. فتدعو طالباتها إلى الانغماس في الدرس، بدل إضاعة الوقت في الكلام الفارغ.

ولكن، ما أن تعود إلى غرفتها، حتّى تهرع إلى المرآة، فيطلّ عليها الوجه الآخر، ويختال أمامها قوام الأميرة، في أحدث موضة للشعر واللباس.

وتبتسم. فتردّ لها شفتا «الأميرة» بسمتها، ويمتلئ صدرها بالطمأنينة.

ونهار أمس، خرجَت إحدى الطالبات عن الحديث المألوف لتسألها أمام الصف:

– هل تجيبين عن سؤال؟

قالَت:

– نعم... شرط ألّا يتعدّى حدود الدرس.

– بل إنّه ضمن حدود شخصيّتك. نرجو ألّا تخيبينا!

قبِلَت باستسلام:

– تفضّلي، اسألي...

– لماذا لم تتزوّجي يا آنسة؟...

انتفضَت.

الطالبة فاجأَتها.

مع كلّ الاستعداد الذي استعدَّته، لم تتوقّع أن تطرح عليها طالبة مثل هذا السؤال، أمام الجميع، وحيث تتسلّم هي زمام الموقف.

ولم تتمالك نفسها، أو تضبط انفعالها وهي تردّ عليها بصوت أعلى ممّا أرادَت:

– الزواج ليس إلزامًا. وهو مرتهن بوجود شخص آخر، مناسب.

فقالَت الطالبة، بلهجة تشبه الوقاحة:

– لن يقنعنا جوابك. لن نصدّق أنّ «الأميرة» لم تُصادف الشخص المناسب.

***

شعرَت بأنّها تنزلق إلى الفخ الذي نصبَته لها الطالبة، فانتفضَت:

– هذا أمر لا يعنيكِ، وأنا لست أميرة... أرجو ألّا يخرج حديثنا عن غايته. نحن هنا لنتعلّم.

قالَتها بحزم، فخرجَت الكلمة الأخيرة مثل صفعة. وانبرت لها الطالبة:

– ونحن هنا لنتفاهم. نريد أن نتعلّم من تجاربك الشخصيّة، لا من الكتاب وحسب.

وساندتها تلميذة أخرى:

– كنّا نسعى إلى حوار معك، يا آنسة... الحوار فقط...

فقاطعَتها:

– لا مانع لديّ من الحوار، شرط أن يبقى حوارنا على خطّ الدرس...

***

حين غادرَت غرفة التدريس، أحسَّت بأنّها انزلَقَت تمامًا، وهوَت في المطبّ الذي أعدَّته لها الطالبات. وأنَّبَت نفسها على الغضب وانعدام الصبر.

وكانت، في الوقت نفسه، تشعر بأنّه لا يحق للآخرين أن يتدخّلوا في أمور شخصيّة، وفي موضوع حميم كهذا... فماذا تعرف تلك الطالبة الغبيّة عنها؟

ماذا تعرف عن الوحدة؟

عن صعوبة الاختيار؟

وعن السرّ الصغير الذي داعبته في الحلم واليقظة، وبات جزءًا من كيانها يأكل معها ويشرب؟

تشبه الأميرة؟!...

بل هي أميرة، فإذًا لن ترضى الزواج بفتى عاديّ.

وسمعَت من أعماق كيانها، الصوت الآخر:

– غضبتِ لأنّ تلك الطالبة لامسَت حقيقتك. كلماتها تدحرجَت حتّى أعماقك. إنّك تعيشين خارج نفسك منذ ربع قرن. أي منذ خرجَت تلك العبارة العسليّة من فم الطالبة في أوّل صف درَّستِه... أتذكرين؟

رفعَت يدها استعدادًا لصفع الصوت الداخليّ، فسمعَت قهقهة ساخرة هزَّت كيانها:

– تضربين الهواء؟! عودي إلى الواقع.

***

قفزَت عن مقعدها، ووقفَت أمام المرآة مثلما تفعل كلّما اختلطَت عليها الأمور، وانتشرتِ الفوضى في مجرى أفكارها. تأمَّلَتِ الوجه المُطلّ من المرآة. تأمّلته طويلًا، وأبصرَت حول العينين ظلالًا حزينة. ثمّ مدَّت أناملها تتحسّس تجاعيد تزنِّر الفم، وتغزو العنق. ولاحظَت أنّ القوام، الذي كان رشيقًا، بدأ يميل إلى السمنة، بل الترهّل... وأهمّ من هذا كلّه، رأَت المرأة المطلّة من المرآة تقف وحدها، بلا رفيق من الأمراء، ولا من عامّة الشعب... وهي لم تعد شابّة، فقدماها تغوصان في خريف العمر...

تراجعَت خطوتين إلى الوراء، كأنّها تنسحب تدريجيًّا من الشخص الآخر، الذي ظلّ يطلّ عليها من المرآة، طوال ربع قرن.

***

أمّا التراجع الحقيقيّ، فقد بدأ في صباح اليوم التالي، حين فوجئت بصوت المذيع يبُثّ النبأ الحزين، في مطلع النشرة الإخباريّة:

«حادث سيّارة أدّى إلى مصرع غريس، أميرة موناكو»...

زهرة الثلج

إنّه المساء، والطفلة السمراء تجلس فوق كرسيّها الورديّ، تنتظر... في حضنها كتاب وبضع صور، ونظراتها تخترق زجاج النافذة، وتلاحق عاصفة شتائيّة، هبَّت على أشجار الحديقة، وراحَت تلسع الفضاء بسياطها، فتشرّد الغيوم في كلّ اتّجاه.

الطفلة السمراء تحتضن كتابًا، تنتظر عودة أبيها... ولن يطول انتظارها. عوَّدَها أن يكون معها في مثل هذا الوقت.

يترك الدنيا، ويهرع إليها، هي ابنته الوحيدة، وفرحة قلبه.

وتبصره يقترب منها، فارع القوام، أنيق الطلّة، لطيف النظرات.

يتقدّم بخطى وئيدة، ويجلس فوق مقعد مقابل مقعدها، ويظلّ صامتًا، إذ يلاحظ شرودها مع العاصفة المهتاجة في الخارج.

تعود الطفلة من سرحتها، لتعاتبه:

– تأخَّرتَ عليّ اليوم!

يردّ على عتابها:

– الحقّ معك، تأخَّرت. لكنّي مستعدّ لأُعوّضك كلّ لحظة.

– وكيف يكون التعويض؟

تسأله بغنج ودلال.

– أروي لك أجمل قصّة.

رقصَت الفرحة في عيني الصغيرة:

– أمس قلت إنّها كانت أجمل قصّة!

– أجل، قلت ذلك، قبل أن أُعدّ لك الأجمل بين حكاياتي.

– هاتِها!

وقفزَت الطفلة، ابنة السنوات السبع، من فوق كرسيّها واستقرَّت في حضنه ثمّ راحَت تلوّح بساقيها في الهواء، وتربِّت بيديها الصغيرتين أصابعه المتشابكة حول خصرها:

– قل لي، هل هي حكاية حقيقيّة، يا أبي؟

أعاده السؤال إلى ذاته، وإلى الجرح المفتوح في الأعماق، فانحنى فوق رأسها الصغير يقبّله:

– كلّ حكاياتي حقيقيّة.

وأصرَّت الصغيرة:

– وهذه أيضًا؟

فردَّ، وهو يحكم الطوق حول خصرها:

– أحكيها أوّلًا... ثمّ أردّ على سؤالك.

«أحكي لكِ عن طفلة... طفلة صغيرة، في مثل عمرك، شعرها أشقر، عيناها بلون النرجس، وجسمها عزف ناي بين حقول القصب.

واسمها «ميساء».

وكانت ميساء تعيش في الحقول، تلعب مع الفراشات، تطير مثل العصافير، تراقص الأزهار وتضفر من شعاع الشمس حبالًا، تلفّها حول خصرها أو تُزيّن بها شعرها...

حين تعطش ميساء، تفتح الوردة الجوريّة أوراقها، وتسقيها من قطرات الندى المختبئة بين ثنايا البتلات.

وعندما تجوع ميساء، تقطف لها الطيور ثمار العلّيق والكرز البرّيّ فتأكل وتنتعش.

وفي المساء، حين تنعس الأجفان النرجسيّة، وتطلب النوم، تنهض الزنابق حول ضفاف الغدير، فتتشابك مع الغزار، وتصنع لها أرجوحة، تنام فيها إلى أن يطلع الفجر وتشرق شمس نهار جديد.

وخلال ساعات الليل الطويلة، يسهر القمر فوق الغدير، وتتحلّق النجوم حول السرير – الأرجوحة – وتهبط الرياح العتيّة، فتتآوى في أكواخ الرعاة وحرس الغابة.

كانت ميساء سعيدة بحياتها، مطمئنّة، راضية بعيشها في جنّة أرضيّة، كجنّتها، ولا تعرف عالمًا سوى ذلك العالم البهيّ، ولا أُناسًا غير سكّان الحقول وأعشاش الشجر.

***

في يوم، وبينما ميساء تتسابق مع الأرانب في الجري حول نبع الماء، سمعَت صدًى مختلفًا عن أصداء الغابة.

توقَّفَت، وأصغَت، وتأكّد لها أنّه صدًى غير مألوف، قادم من مكان ما، خلف التلال.

سألَت رفيقها الأرنب:

– هل سمعتَ موسيقى غريبة؟

فهزَّ الأرنب رأسه نافيًا:

– لا... أنا لا أفهم ما تقولين.

وانطلقَت ميساء إلى غابة القصب، وراحَت تهزّ واحدًا من جذوعها العتيقة:

– هل تسمع نغمًا، يختلف عن أنغام الغاب؟

انحنى جذع القصب، حتّى كاد رأسه يلامس التراب:

– طبعًا أسمعه. إنّه بعض منّي، وامتداد لأنغامي.

– إذًا، هو ليس غريبًا عنّا!

– بلى... هذا العزف يأتي من مناطق بعيدة عنّا. إنّه عزف على الناي. والناي واحد من أضلعي، ينفخون في جوفه، فتتدفَّق ألحان عذبة، وتعبر إلى حيث تحملها الريح.

– النغم، إذن، يأتي مع تموّج الرياح!

– بل تبثُّه أنفاس بشر.

***

توقَّفَت ميساء عند الكلمة الأخيرة، ذاهلة. ودَّت لو تسأل جذع القصب، عن معنى الكلمة، لكنّ النغم الزاحف صوبها، لم يترك لها الفرصة،

لتسأل. وبدأت مشاعر غير مألوفة تغزو كيانها، فلم تعد تدري كيف تتصرّف، وهل تحزن أم تفرح؟ تتقدّم أم تتراجع؟ فالأحاسيس التي يعرفها الصغار، لم تكن أحاسيسها. وهي تعيش بين الطيور وحيوانات الغاب، وتعيش مع عطر الورود، ورفيف الفراش، ومداعبات النسائم.

ولم يسبق لها أن سمعَت صوتًا آتيًا من مناطق بعيدة عن منطقتها. وظلّ النغم يقترب، وحسبَت أنّه يختبئ خلف الصخرة المشرفة على غدير الماء، فتسلّقتها، غير عابئة بنتوء قاسية غرزَت في ساقيها ويديها الناعمتين.

فوق الصخرة كانت الطفلة الحلوة، حين أبصرته قادمًا من خلف التلّة:

– حقًّا إنّه مخلوق غريب!

قالت هذا، وهي تتذكّر كلامًا سمعته من شجرة القصب، وشعرت بأنّ عصفورًا مجنونًا يرقص بين أضلعها بلا توقّف.

ودَّت لو تصرخ، لشدّة ما اعتراها من دهشة وفرح واستغراب.

وكان الفتى منهمكًا بالعزف على نايه، فلم يفطن لها، ولم يرفع عينيه، كي يبصرها، حيث كانت واقفة مثل نورس بحريّ تائه.

وصرخَت ميساء.

لم تحمل صرختها كلمات ذات معنى. فقط، أزاحَت كفّها عن شفتيها، فانطلقَت الصرخة المكبوتة، وجفل الفتى، وبدلًا من أن يهرب، بقي جامدًا في مكانه، وتوقّف عن العزف.

***

ظلّ فترة يتأمّلها، غير مصدّق ما تبصره عيناه. فهو يقصد هذه السهول في الأصباح والعشايا، ولم يصادف بشرًا من قبل... وهو يأتي الغدير ليتبرّد بمائه ويقطع من جذوع القصب، بضع عقد تصلح لصنع ناي جديد.

إنّه يقصد هذه السهول كلّ يوم، ولم يطالعه وجه من وجوه الإنس!

لذا، وقف جامدًا، بعدما أجفلته صرخة ميساء. ثمّ لم يلبث أن ابتسم لها، فردَّت له الابتسامة، وأدركَت أنّه يفهمها مثلما تفهمها الوردة والأرنب، وشجرة الغزار. لذا تجرّأَت فسألته:

– مَن تكون، أيّها المخلوق الغريب؟

تابع الفتى تأمّله، والبسمة لا تفارق شفتيه، ثمّ ردّ عليها مداعبًا:

– من الأجدر أن أسألك أنا: مَن تكونين؟

– أنا ميساء! فتاة الغاب، صديقة الرياح والعصافير، رفيقة الفراشات... أنا...

وقاطعها:

– أين تقيمين؟

– مسكني في كلّ مكان.

– وأين تنامين؟

– في أرجوحة الزنبق والغزار.

– مَن يُطعمك، يسقيك ويُلبسك هذه الثياب الرائعة؟

– أهل بيتي.

– هل يمكنني التعرّف إليهم؟...

– هم حولك. كيفما أدرت النظر، تبصر وجوههم.

– لم أعد أفهمك.

– الموضوع ليس صعبًا ولا غامضًا. قل لي: هل تقوى على تسلّق الصخرة؟

– طبعًا...

ومدَّت ميساء يدها، لتساعده، ففوجئت به يطير ويحطّ بقربها!

– أنتَ تُخيفني!

– أنا بشر، مثلكِ، فلِم الخوف؟!

– إنّك أوّل بشر تبصره عيناي!

– وأنتِ أوّل حوريّة من حوريّات الغاب، أتحدّث إليها... لا أصدّق أنّك حقًّا موجودة، وأنّي لا أحلم... دعيني ألمس يدك.

وأعطَته ميساء يدها.

– وشعرك.

فقرَّبَت ضفيرتها الشقراء وفرشتها أمام عينيه.

– أترتدين ثيابًا أجمل من الورد وزنابق الحقول؟

– هذه ثياب ربيعي.

– تقصدين القول إنّك تبدّلينها مع كلّ فصل؟

– طبعًا، أَوَلا تفعلون ذلك في مناطق البشر؟

هزّ الفتى رأسه مؤكّدًا:

– طبعًا، لكلّ فصل ثياب خاصّة. المفاجأة أنسَتني أنّنا في مطلع الربيع... ومتى جاء الصيف، ماذا ترتدين؟

– شعاع الشمس!

– وفي الخريف؟

– ملاءة من غمام الفضاء!

– وفي الشتاء؟

– أرتدي الثلج!

– وتصبحين زهرة الثلج!

صمتَ الفتى، فاستغلّت ميساء صمته لتسأله بدورها:

– وأنتَ، هل تبدّل ثيابك مع قدوم كلّ فصل؟

– أجل!

– وترتدي أزهار البراري، الشمس، الريح والغمام؟

– بل أرتدي ثيابًا عاديّة من قطن أو صوف وحرير. أمّا هي، فقد كانت مثلك، ترتدي الطبيعة وتتحلّى بحلاها!

– هي؟ مَن هي أيّها الغريب؟!

سألَت ميساء بقلق، فردّ الفتى بصوت حزين:

– هي أختي وولع قلبي. أختي الصغرى «ريّانة». خرجَت، ذات يوم لتلعب في البستان. وكانت ترتدي ثوبًا بلون الزهور... مثل ثوبك. خرجَت تلعب مع الفراشات ولم ترجع.

– وأين ذهبَت أختك الصغرى، أيّها الغريب؟

أطلقَت ميساء سؤالها بلهفة، فحنا الفتى رأسه وتنهّد:

– ليتني أعرف مكانها، فأذهب إليها... هبَّت عاصفة وحملتها... حملتها بعيدًا عنّا. وخرجنا نبحث عنها فوق التلال، في السهول والغابات، على ضفاف الأنهر والغدران. وطال بحثنا... ولم نعثر على أثر منها.

أصغَت ميساء، جيّدًا، إلى الفتى الحزين، يصبّ كلامه مع التنهّد والآهات، ثمّ تمتمَت:

– ربّما زرعَتها العاصفة!

– ماذا تقولين؟

أطلق الفتى سؤاله صرخة واجفة، فردَّت ميساء:

– كنت أقول: ربّما غرسَتها العاصفة في حقول الفرح.

– غرسَتها؟! هي ليست بذرة ولا بصلة زنبق... هي فتاة حلوة، لم تبلغ سنّها السابعة... وهي...

وصمت الفتى.

اختنقَت الكلمات في حلقه، ولمّا استرجع قدرته على النطق قال بهدوء:

– ربّما كنتِ على حقّ!... أختي اختفَت في موسم الغرس. حملتها رياح الخريف بعيدًا عن الديار. منذ ذلك التاريخ، وأنا أخرج إلى الغابات هربًا من حزن أمّي وصمت أبي... أحمل الناي، وأتشرّد في البراري، أعزف... أعزف لها، ويخالجني الأمل بأنّي سوف ألتقيها ذات يوم...

وتابعَت ميساء:

– ذات يوم ربيعيّ، وتكون البذور قد أصبحت نبتات خضراء، تزيّن رؤوسها تيجان من أزهار رائعة الألوان... وتكون البذور قد تعبَت من صمت الأعماق، في ثنايا التراب، ومن ظلمة الخلايا الجوفيّة، ورطوبتها، فتشقّق قشرة الأرض الخارجيّة، باحثة عن منافذ النور... وتكون البذرة قد عاشت فصول البرد في انتظار دفء الربيع...

فتابع الفتى:

– فتطلع زهرة بريّة. تحمل فوق رأسها تاجًا من ذهب، وفي عينيها ألوان النرجس والبنفسج. وتكون فرحة الحقول وفخر الغابات...

فقاطعَته ميساء:

– إذًا لستَ غريبًا. ها إنّي أفهم كلامك، وأشعر بأنّي سمعته من قبل. وأبصر وجهك، وأحاول أن أتذكّر: أين أبصرته؟ وهل كان مرسومًا فوق الصفحة الهادئة لمياه الغدير؟...

وأكمل الفتى:

– لا أذكر مَن أوحى إليّ كي أخرج إلى غاب القصب، أقطع منه، كلّ يوم، بضع عقد أحوّلها إلى ناي أعزف عليه ألحاني، في الليل كما

في النهار، في الصيف كما في الشتاء... لا أذكر مَن أوحى إليّ بأن أسير اليوم، في اتجاهك...

فتابعَت ميساء:

– وأشعر بأنّك لست غريبًا. وجهك مطبوع في الذاكرة، وفي أعماق البذرة قبل أن تذريها العاصفة لتغرسها في جوف التربة.

وردّ الفتى:

– تغرسها، كي تنبُت زهرة بريّة، عيناها نرجس وبنفسج، وشعرها تاج من شعاع الشمس...

***

وكان الفتى يتابع وصفه للغرسة الرائعة، التي أطلَّت مع شقائق النعمان وبخور مريم، تحمل بشائر الربيع، تبثُّها في الكون، توقظه من سباته، من نوم عميق، ومن خدر الشتاء الماضي. وكان لدى الفتى كلام كثير ينوي أن يقوله للزهرة الربيعيّة، حين التفَت فلم يجدها.

وأبصر نفسه واقفًا وحده فوق الصخرة، في يده مزمار من قصب، تعوَّد أن يحمله، كلّما خرج إلى الغاب، ليعزف عليه ألحانه...»

***

لم تُعلّق الطفلة على حكاية أبيها، مثلما تفعل دائمًا، ولم تتحرّك أو تطرح سؤالها المنتظر: «هل هي حقيقيّة يا أبي؟»... ظلَّت جامدة في حضنه وقد شعرَت غريزة الطفولة فيها بأنّ فتى الحكاية، الصغير، كبر فجأة

وصار رجلًا بحجم أبيها، فتابع العزف على الناي أو سرد الحكايات، آملًا أن تسمعه ذات يوم، زهرة بهيّة، خطفَتها من بين ذراعيه عاصفة هوجاء، وغرسَتها في حقول الثلج...

الليالي الغجريّة

كنّا نُقيم وسط دوائر:

الأولى منها، ملاصِقةٌ جلودنا، هي دائرة العائلة، تلتفّ وتُحكم قبضتها علينا، فلا نكاد نتنفّس إلّا بأمر صادر عنها.

ومن حولها دائرة المجتمع التقليديّ، الضيّق، المتحجّر والذي – إذا سمح لنا بالتحرّك بين الأزقّة والزواريب – يقرّر لنا تلك الحدود النهائيّة، وعند الجهات الأربع وما بينها، كما يقيم حدودًا أخرى، أشدّ صلابة، بيننا وبين عالم الكبار...

***

في هذا المناخ الخانق، فتحتُ عينيّ، على طفولة، لا أتسرّع فأقول إنّها كانت بائسة؛ كما لا أسمح لنفسي بارتكاب خطيئة التزوير، فأنعَت طفولتنا، تلك، بالسعيدة المرحة.

أُسمّيها طفولة مصادفة، إذ كان يمكن لنا أن نولد كبارًا، لو أنّ سنّة الطبيعة تسمح بذلك، من دون أن يُلاحظ المحيطون بنا أيّ فارق... إنّما للطبيعة قيودها، ولها شرائعها و... دوائرها كذلك.

وهكذا كان علينا أن نتقبّل ولادتنا المحتّمة، ونستمرّ في الزحف والحبو، والزعيق والأنين، والانطواء والانكفاء، بل التقلّص إلى حدّ الاضمحلال... كي نحمي أنفسنا؛ لأنّ جلودنا الضيّقة، الرقيقة، كانت أعجز من أن تتصدّى لحمايتنا.

لذا عمدنا إلى خلق عوالم أخرى، خارج الدوائر... وصرنا نقيم فيها ليلًا ونهارًا. ووضعنا لها قوانين وشرائع، وابتكرنا لغات وأساليب تعامُل...

وشكَّلَت تلك القفزة النوعيّة، في سلوكنا، مخرجًا من المأزق، وإن وهميًّا... وخلاصًا من حبل المشنقة وإن خياليًّا... ونسمة السحر المنعشة تهبّ من حيث لا ندري، لتغرس الآمال والوعود، في أيّامنا...

***

حدث ذلك كلّه قبل أن يأتينا ذلك النغم الرائع من خلف التلال الشرقيّة. فقريتنا، إلى جانب حدودها البشريّة والتقليديّة، كانت محاطة بتلال، من جهاتها الأربع... وهذا ما جعلها تبدو كمائدة مستطيلة، أُعِدَّت لعمالقة يجلسون حولها من كلّ صوب...

وكانت التلال المسنَّنة، العالية، تبدو لنا أشبه بالمخلوقات العملاقة، عدا السلسلة الواقعة إلى الجنوب، المنبسطة بارتياح، وقد ازدان صدرها البهيّ بالجلول الخضر، كروم العنب والتين، وبساتين الخوخ والتفّاح؛ ومن زوايا ذلك الصدر السخيّ ترشح العيون والينابيع، فتزيد الأرض عطاءً وخصبًا...

***

تلك هي الطبيعة مثلما عرفناها، وفتحنا عليها الوعي والإدراك... وكما عرفها، من قبل، الآباء والأجداد...

لكنّ الجديد الآتي من خلف التلال الشرقيّة، حمل معه وعدًا بالتحوّل، بَلغَتنا منه أصداء غامضة، كانت ترتفع كلّما انخفض جناح النور، عند المساء، حتّى إذا ما طلع القمر، وتصدّر مع شقيقته النجمة الوفيّة قبّة الفضاء، راحَت الأنغام تقوى وتشتدّ وتتلوّن؛ فإذا هي ترسل النداء ملهوفًا، مستوحشًا، مولّهًا، حاملًا الرغبات الجامحة والأشواق الحارقة. وحاملًا الشكوى والحنين، ووعود الحبّ الكريم.

***

– من أين تجيء تلك الأنغام؟!...

حملنا السؤال خارج الدائرة الصغرى، وبلّغناه آذان الكبار. فتلفَّتَت الأعين، وتشابكَت وتكافلَت وتضامنَت واتّفقَت على كتمان السرّ.

– من حقِّنا أن نعرف...

قلنا للكبار:

– من حقّنا أن نسأل: هل هذه الأنغام جزء من عالمنا؟ وهل كانت دائمًا هناك؟

ومن جديد أُسدِلَت الستائرُ على العيون والأفواه.

***

– لا... هذا ليس الحلّ المنشود. علينا أن نسعى، ونجد مصدرًا آخر، يُطلعنا على السرّ ويُخبرنا بالحقيقة.

اقتراح من نجوى، زادَت عليه هند:

– تعالوا نذهب إلى روزينا...

وما كادَت تتلفّظ بالاسم حتّى انفجر الرفاق بالضحك:

– روزينا؟ روزينا المجنونة؟! ماذا يمكنها أن تُخبرنا روزينا؟ آه! تروي حكايات الماضي، أيّام زمان. وهذا النغم جديد... جديد.

فقالَت نجوى بهدوء:

– روزينا لا تُخفي عنّا سرًّا. هند على حقّ. تذكّروا حكاياتها في الماضي... ثمّ إنّها لا تخاف. فهي تقيم خارج كلّ الدوائر، لذا لن ينالها أحد باللوم أو بالعتب.

وتدخّل شادي:

– طيّب يا ستّي، نسأل روزينا... هيّا بنا، يا شباب!...

***

وصفّق «الشباب». وخرجنا جميعًا من دائرتنا الضيّقة، وتخطّينا حدود الدائرة الثانية والثالثة، وكلّ الحلقات المحيطة بها، وقصدنا دارها.

كانت تجلس فوق المصطبة، وقد أسدَلَت حولها شعرها، كشلّالات رماد. لم تتحرّك لاستقبالنا. لم تبدّل جلستها، لم تتلفّظ بكلمة، لم ترحّب بنا.

وكان علينا أن نحطّم دائرة عزلتها:

– مساء الخير، خالة روزينا.

ولم تردّ على التحيّة.

تسلَّقَت نجوى الدرجة الأولى، والثانية، فارتعش الكيان المستحمّ بنور القمر، وتحرَّكَت شفتاها تسألان:

– ماذا تريدون منّي؟!

فردّ شادي:

– جئنا نسألك، مَن يقيم عند الجهة الأخرى للتلال الشرقيّة؟

لم تُجبْهُ...

وظنّ شادي أنّها لم تسمعْهُ، فكرّر السؤال مضيفًا ملاحظاته:

– منذ فترة. بدأنا نسمع صدى أنغام غريبة، تأتي من خلف التلال الشرقيّة. سألنا عنها الأهل فلم يجيبوا. كرّرنا السؤال تهرّبوا. لذا قصدناكِ، بكلّ الثقة والإيمان... فأنتِ تعرفين أكثر من أيّ إنسان.

وردَّت من بعده الجوقة:

– خبّرينا، خالة روزينا... خبّرينا.

رفعَت السيّدة يديها، وأومأَت إلينا جميعًا، كي نصعد الدرجات الفاصلة بيننا. ثمّ دعتنا للجلوس حولها. وظلّ شعرها حبالًا رماديّة اللون، تتموّج حول وجهها، تكاد تُخفي تفاصيله، مستثنية العينين، الحادّتي النظرات كعيني صقر.

انتظرنا بوجل وقد جلّلنا الصمت. وملأ أنفسَنا رهبةً منظرُها، وأنوار القمر تنهمر، فتزيدنا صمتًا وخشوعًا.

ولم تعد روزينا تلك «الغريبة الأطوار»، المقيمة في عزلة كوخها، تسامر القطط والعصافير.

لم تعد المعتزلةَ، مقاطِعَةَ الجنس البشريّ حتّى آخر حدود العلاقة...

فقد بـدَت في تلك اللحظات، سيّدة حكيمة، رهيبة، ممتلئة معرفة، قابضة على مفاتيح الأسرار.

وتحرَّكت شفتاها تقصّان علينا، حكاية الليالي الغجريّة:

***

– حدث ذلك من زمـان... قبل أن أولـد وتولـدوا، وقبل أن يطأَ أجدادُكم أرضَ هذه القرية...

حدث ذلك من زمان... حين اهتدى جماعة من الغجر إلى سهل ينبسط عند أقدام التلال الشرقيّة، ومن الجهة المخفيّة عن مدى القرية.

فوق ذلك السهل نصبوا خيامهم، ومنه راحوا ينطلقون في كلّ اتجاه: يـزورون القرى والـمـزارع، حاملين ثمار مواهبهم! شبابهم يعزفون على الناي، ويداعبون أوتار الرباب، فتنطلق من بين أناملهم أنغام شجيّة، تصل السامع بجذوره البعيدة، بينما ترقص فتياتُهم... الصبايا المرحات، ذوات البشرة العسليّة والشعر الأملس المسترسل، والثياب المزركشة الفضفاضة... وتغنّي الفتيات، وهنّ يرقصن، وترنّ في أقدامهنّ الخلاخيل، وفي سواعدهنّ الأساور والدمالج والأقراط المتدلّية كالأجراس، تشترك في الرقص والعزف والغناء...

وتتنقّل الجوقة، من بيت إلى بيت، تنثر الفرح والبهجة، تنثرها أزهارًا بهيّة في الوجود الباهت.

وكان ذلك كلّه حسنًا ومقبولًا؛ بل إنّ أحوال القرية تحوَّلَت، فازداد الخصب في أرحام النساء وفي باطن السهول. بدَّلَت الطيور شدوها، وصارَت تستلهم تلك الأنغامَ أنغامًا جديدة. ولم يعُد الرجال يحسّون بالتعب. كان وعد الفرح يرافق سواعدهم وهي تحفر الأرض، أو تغرز المحراث في التربة، وتُرقّص المنجل بين أعناق السنابل.

وفيما كانوا يعودون، في أمسيات سابقة، كانوا يعودون منكّسي الرؤوس والهامات، فصاروا يرجعون من نهار عمل شاق، وفي أفواههم نغم الحياة... ونغم عذب لا يلبث أن ينتقل كلمسة السحر، إلى نفوس النساء، فيمتلئن بهجة، وإلى الأطفال، فترفّ الأجنحة، تكاد تحملهم وتطير بهم.

وطارَت الأجنحة، ذات يوم، بواحدة منهم: صبيّة مثل قلب النهار، لوَّعها الحبّ وسحرها الرقص والغناء. وشدَّها قرع الطبول عند المقلب الآخر من التلال الشرقيّة، فصارَت تقضي أيّامها في الرقص والغناء.

وفي ليلة ظلماء، افتقدَها أهلها ولم يجدوها، وتذكَّروا:

إنّهم في زمان مضى، كانوا يحكون حكاية حزينة مغمَّسة بالدمع والأنين، عن طفلة بريئة، خطفها الغجر، وأخفوها بين أطفالهم، ألبسوها أزياءهم، علّموها لغاتهم، ولمّا كبرَت، زوّجوها واحدًا من شبابهم.

وظلّ الحزن مقيمًا في النفوس، بينما الحنين يأكل أحشاء الصبيّة، ويقودها صوب ديار الأهل. ولا تجد مَن يسمع النداء.

وفي يوم عبقَت في أنفها رائحة غريبة، ذكَّرتها بعشب البلاد ونكهة كروم العنب والتين... فراحَت ترسل النداء، منغَّمًا، مبطَّنًا بخلاصة الحكاية. وسمعها، مصادفةً، بائع متجوّل، كان يقود حماره وقد حمّله صحّارتين مثقلتين بعناقيد العنب، وراحَت الصبيّة تغنّي:

«يا بيّاع العنبيّا،
قلْ لأُمّي،
قلْ لبيّا،
كنت حطّب،
كنت قشقش،
كنت إملا الجرار ميّا...
سرقوني الغجريّا
أخذوني لبلدهم
زوّجوني لولدهم
جبت إلهم، هالصبيّا»...

وأصغى البائع إلى الصوت، فأدرك أنّ الغجريّة توجّه الغناء إليه... إليه وحده. وفهم معاني الكلمات، وأدرك غاية القصد، فهرع إلى

القرية، وطرق باب الأهل، وأخبرهم. قال لهم: ابنتكم هناك، حيث ينصب الغجر خيامهم.

وشدَّت القرية الركاب. وشنّ الأهالي هجومًا على قبيلة الغجر، واستعادوا الفتاة...

وظلَّت الأنغام الحزينة عالقةً في ثنايا الذاكرة... وظلَّت تعيش في حنايا النفوس، جيلًا بعد جيل، حتّى قُدِّر للحكاية أن تتكرّر، وتدفع الأهالي إلى أن:

يشدّوا الأحزمة، ويحملوا السلاح، وينادي فيهم المنادي: «ملتقانا عند الوجه الآخر، من التلال الشرقيّة»...

وانطلقوا فوق ظهور الخيل، وطوّقوا المضارب المنتشرة على امتداد السهول الجرداء.

وخرج جماعة الغجر، يولولون ويصرخون، ونسوا الرقص، ونسوا الغناء، وتقدّم كبيرهم، يسأل عن السبب الذي دفع الجيران المسالمين، إلى أن يشنّوا الحرب من دون سابق إنذار.

وخرج يسأل: «ما هو الدافع إلى رفع أعلام الحرب؟»...

وجاءه الجواب، طعنة في كتفه. وفرّ الآخرون. وقبل أن يختفي أثرهم، كان الصوت في ركابهم، والصوت هادر كالرعد:

– أين الصبيّة، يا أحطّ الخلق؟...

صوت أخيها ينزف حقدًا ومرارة، وينزف كلامًا كحدّ السيف:

– أختنا الحلوة، العذبة كقلب النهار، سحرتموها، يا أنـذال. خطفتموها أخفيتموها... هاتوا أختنا وإلّا، فدونكم الفناء!...

وارتفعَت الولولة وعلا الصراخ. واندفعَت النساء صوب المهاجمين:

– ارحمونا. نحن جماعة الرقص والغناء. نجهل كلّ شيء عداه. تذكّروا فرحًا حملناه إلى دياركم. تذكّروا رقصنا على أعتابكم، وغناءنا في ساحاتكم... تذكّروا...

– أيّها الأنذال!...

الصوت الجريح يرتفع من جديد:

– أيّها السفلة اللئام... جعلتمونا ندفع أغلى الأثمان.

***

– نعم، الشاب على حقّ...

صوت شيخ يتقدّم، ويعلو فوق الصراخ وصهيل الخيل. ويرتفع صافيًا جريئًا:

– الشاب على حقّ، وهذه هي الفتاة... تفضّلوا، وتسلّموها...

هدأَت الحركة. سكنَت الرياح. وتعلّق الانتظار فوق حبال الريح.

والصوت الواضح الصافي يعود ويرتفع:

– تقدّموا، خذوها. هي لكم. وشرطها الوحيد ألّا ترفع عن وجهها النقاب إلّا بعدما تخطو عتبة دارها.

***

وتقدّموا... الأب أوّلًا، ثمّ الإخوة، وأبناء العم.

وتقدَّمَت الفتاة باتّجاه الجماعة. بخطًى وجلة سارَت منكّسة الرأس، وثوبها الفضفاض، والمزركش بألف لون، يجري خلفها. يكنس الأرض في أعقابها. ثمّ يلتفّ حول ساقيها وهي ترتقي ظهر الحصان.

– ارفعي النقاب عن وجهك وانظري إليّ...

صوت أبيها يأمرها، حال تخطّيها عتبة الدار.

أبوها؟...

يتراجع:

– أنتِ؟... مَن أنتِ؟! لست لمياء ابنتي... عجوز النحس، خُدعنا من جديد.

واستدار ليسمع الأتباع صوته:

– خُدعنا، يا شباب... خدَعنا الغجر اللئام!

جثَت الفتاة أمام الغضب وتمتمَت شفتاها:

– لست لمياء... أنا هيفاء. وأبي شيخ القبيلة، قدّمني إليكم، فدية عن الجماعة وحقنًا للدماء.

– أبوها؟!

زعق الرجل:

– أبوها يقدّمها، ولا يخشى ثورة غضبنا؟ ما الذي دهانا، يا شباب؟ ..

– لا شيء... فقط سوء تفاهم. وكثير من الشكّ والتسرّع، وخرافات ماضٍ سحيق استيقظت في الصدور، وأيقظَت، معها، الأحقاد الغافية.

كان هذا صوت أمّها... يعلو بهدوئه فوق صخب الجماعة. وتقدَّمَت أمّ لمياء ووقفَت وحدها في وجه النار والدخان.

***

أوصلتنا روزينا إلى هذا الحدّ من الحكاية، وصمتَت، كأنّها تضع نقطة الختام لكلامها، ثمّ تتركنا، نتلظّى بنيران أشواقنا.

وصرخنا، جميعنا، بصوت واحد:

– ولمياء؟... ماذا حدث للمياء؟...

لم تردّ علينا في البدء. وزادنا صمتها توتّرًا، فعدنا نؤكّد بإصرار:

– لن نغادر قبل أن نعرف بقيّة الحكاية.

فتمتمَت روزينا، وكأنّها تُحادث نفسها:

– البقيّة ليست بقيّة؛ إنّما هي حكاية جديدة، بدَأَت في ذلك اليوم بالذات... يوم خرقَت لمياء كلّ الدوائر، وتبعَت فتى أحبّه قلبها، وعارضَها في اختياره الأهل. تبعَته، خالعة من ذاتها كلّ الوصايا والتقاليد، مقتدية بنغم غجريّ، وبصدًى غامض كان يأتي من خلف التلال الشرقيّة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

دلال

حين وُلدَت دلال، كان الفرح يعُمُّ الأرض، الموسيقى تصدح في أجواء الكون والناس يخطرون بين حدائق الورود، مبتهجين بالحياة، محتفلين بوجودهم في هذا الكوكب الرائع الجمال. وكانت السنة قد بدَأَت تغزل الخيط الأوّل من ثوبها الجديد، والكواكب ساهرة في الأعالي، خشية أن تفوتها مراقبة المنظر الرائع.

أمّا سائر المخلوقات التي تدبّ فوق الأرض، أو تطير في أجوائها وتسبح في بحارها، فقد شعرتْ برعشات غريبة، أشبه بتلك التي يرسلها سلك مكهرب في خلايا الأعصاب، ولجت كياناتها لتفرغ فيها شحنات من الفرح والنشوة وتخبرها أنّ أحداثًا هامّة تنتظرها، وأنّ الأحلام والوعود المنتظَرة منذ بَدْءِ الكون، باتَت على وشك التحقّق.

هكذا كانت الدنيا تنتظر إطلالتها بالطبل والزمر. ولمّا حطَّت قدمها الصغيرة فوق البساط الأخضر، المفروش بالنضارة والمُشرِق بالأمل، تفتَّحَت الأزهار جميعًا وراحَت ترقص على هبوب نسمات ناعمة حنون، جاءتها من كلّ جهات الكون...

لم تصرخ دلال، لحظةَ وُلدَت، شأن الأطفال الذين يخرجون من حمّى الرحم ودفئه وحنانه، ليواجهوا العالم بصقيعه، والوجود الواقعيّ بكلّ خشونته...

كانت أيدٍ خفيّةٌ ساحرة تُحيط بكيانها الصغير، تقطر له الحنان والوعود، وتحمله إلى مرتبة رفيعة أُعدَّت لقدومه.

هذا ما يشهد به كلّ مَن واكبه الحظّ لحضور الولادة العظيمة... ويشهد أيضًا بأنّ الأمّ كانت تردّ الكنز الثمين إلى صدرها، وهي في حالة من الذهول التامّ. فقد سبق لها أن وضعَت عدّة أطفال قبل هذه الطفلة، لكنّها لم تبصر وجهًا واحدًا من وجوه أطفالها المولودين، يشعّ بالنور مثل وجه هذه الطفلة الغريبة... كما لم تأخذها الدهشة سابقًا مثلما حصل على أثر ولادتها الأخيرة، إذ أُصيبَت بِهَوَس الأمومة ولم تعُد تغفو إلّا إذا غفَت الصغيرة، ولا يتحدّث لسانها بحديث سواها.

وفي انتصاف الليالي، وحين يكون جسمها المنهك بحاجة إلى النوم والراحة، كانت تسرق نفسها من عالم الكرى وتقترب، على أطراف قدميها، إلى حيث تنام طفلتها، فتسجد أمام سريرها، وتقضي ساعات في تأمّل وجهها الهادئ، والإنصات إلى إيقاع أنفاسها في الصعود والهبوط، أو التملّي من المشاهد المتعاقبة على صفحة الوجه البريء، والناهضة من قاع الأحلام.

ومع أنّ القابلة والجارات لم يلحظنَ دهشة الأمّ، ولم تبصر أعينهنّ ما رأته عيناها، إلّا أنّهنّ جميعًا شهدنَ على تفرُّد المناسبة،

ونقلنَ عن الصغيرة أحاديث الإعجاب، مستمدّات وحيَهنّ من حماسة الأمّ، واندفاعها في وصف تلك العلاقة الرائعة التي نشأَت بينها وبين المولودة الجديدة.

***

ودلال كبرَت، مثلما يكبر الأطفال في القصص والحكايات؛ رافلة بالسعادة والهناء، ناعمة البال، سعيدة بكلّ لحظة من لحظات وجودها، وجميلة إلى أقصى حدود الجمال...

وجهها ملائكيّ القسمات، قامتها رشيقة، وخطواتها – إذا هي حاولَت أن تمشي فوق الأرض – تشبه رقص الفراش بين أعناق الزهر... أمّا شعرها، فخصلات مستعارة من شعاع الشمس وسنابل الحنول... ولا تحدّث عن ثغرها، خصوصًا إذا قرّر أن يفتر عن ابتسامة، فإنّه يقطر شهدًا وحلاوة. والكلمات تتناثر، من بين شفتيها، مثلما تفلت لأنغام من حنجرة كناري!...

***

هكذا، باختصار، كبرَت دلال. وتبعتها أعين الرصد، فسجَّلَت بجوار اسمها غرائب الأقوال والأحاديث. وطارَت شهرتها إلى أبعد من محيطها، فصارَت تحطّ في كلّ دائرة يلتقي فيها المحظوظون حول مآدب الكلام، وولائم الطعام.

وسيرتها بلغَت ذات يوم، أذني فتى، له من دنياه مثلما لها من حظّ ومواهب... سمع الحكاية، وطار إلى ملاقاتها على جناح أسرع الطيور.

ولم يترك أمنية، من أمنياتها القديمة والحديثة، إلّا وحقّقها... وعند ذاك فقط، استحقّها وأصبح لها قرينًا. وانتقل الرواة وهواة القصص، بعد ذلك، إلى غزل حكاياتهم، وسردها بصيغة المثنّى.

***

لم تكد تنقضي سنوات قليلة على ذلك الزواج، حتّى أخذت السعادة تتناسل، وتتكاثر فتعمّ الكون؛ فقد وضعَت دلال طفلة على شكلها ومثالها. وأهدَت زوجها طفلًا ذكرًا ملأ قلبه فرحًا وبهجة وأملًا بالخلود. وأتبعَته بأخ ثانٍ فثالث.

وبقيَت الابنة وحيدة، بل فريدة بين الفتيات؛ تمامًا مثلما كانت أمّها من قبلها.

الأمومة، وهي نعمة كبرى خصَّت بها الحياة المرأة، زادَت دلال مرحًا على مرح، وجمالًا فوق جمال.

كان لها من حديقة الزواج عطر الورود، ورونقها؛ أمّا الأشواك فتتكفّل بها مربّيات متخصّصات، ونساء أُخريات، وُلِدنَ تحت أبراج أقلّ حظًّا من برجها.

وهكذا، امتلأ بيتها، بهذا الصنف من النساء. ووزِّعَت عليهنّ الأدوار فبَقِيَ لها، من أيّامها، شروق الشمس وتفتّح البراعم ونشق العبير.

كانت دلال عند تلك المحطّة من رحلة العمر، عندما اندلَعَت في مدينتها، حرب ضروس... ومع أنّ هذا ليس أصلح النعوت لوصف حرب تجاوزَت النعوت والصفات كلّها... إلّا أنّه يسجّل في هذا المجال تسجيلًا عابرًا، لأنّ الحرب ليست محور الكلام، بل تلك المرأة الرائعة، التي اسمها دلال؛ فقد تمكَّنت، بما لها من سحر ومواهب خارقة، أن تتجاوز الحرب.

وحدها، تلك المرأة المدهشة، استطاعَت أن تُطوّع الحرب، وتُخضعها لسطوتها، وتُبقيها خارج أسوار حديقتها، بل خارج المدى الذي يحدّه نظرها. وإلّا، فكيف... (بربّكم، أخبروني) كيف يبقى لها ذلك الدلال كلّه؟

وهي لم تسافر. لم تُهاجر. لم يبع زوجها أملاكه، ولم ينقل أعماله إلى الخارج، مثلما فعلَت الأكثريّة الساحقة من مواطنيه الأثرياء.

العائلة بقيَت مقيمة في القصر الفخم، المسوّر بحديقة يمكن أن تسمّى «جنّة أرضيّة»... والأولاد تابعوا دراستهم، بطمأنينة. كما لم تخدش الحرب، بعصفها وقصفها، جدارًا واحدًا من جدران القصر، أو بناء الشركة ناطح السحب.

ولم تصب شظيّة من شظاياها العشوائيّة، ساق ولد، أو طرف إصبع من أصابع يديه. ولا ثار غبارها الحارق في وجه دلال، بل ظلّ له رونقه وتألّقه، وتلك الطاقة الهائلة على الترفّع عن كلّ ما يلامس التراب.

ظلَّت تسير وكأنّها الفراشة الراقصة في مرج تفتَّحَت فيه الأزهار من كلّ لون. وتتحدّث بذلك الصوت الهادئ النقيّ، والذي لم تشوّش صفاءه أصداءُ الانفجارات.

وتخرج إلى الناس في أيّام الصحو، وقد عقصَت شعرها السنبليّ الذهبيّ تاجًا فوق قمّة الرأس، واتَّشَحَت بأثواب مستعارة من ألوان قوس قزح، أو من أحلام الغيوم الربيعيّة.

وتخرج إلى الشارع، فينهض لاستقبالها ويطلع من تحت الأنقاض والدمار، ليواجهها بالزينة والأنوار.

وهكذا خرج الشارع لاستقبالها في تلك الصبيحة التي يعجز مرور الزمن، عن محو ذكراها.

كانت دلال تتصدّر عربتها المذهّبة، وقد ارتدَت للمناسبة أفخر الحلل، وتزيَّنَت بأثمن الجواهر والحلى، وعقصَت شعرها تاجًا فوق قمّة الرأس، وجمَّلَت وجهها ولم تنسَ الظلال حول عينيها؛ وجلس، قربها، زوجها المخلص لها وللوطن... بينما ضمّ المقعد الأماميّ من العربة، السائق وأحد المرافقين. وكانت تتبعها عربة أخرى، لا تقلّ عن الأولى فخامة، وقد امتلأَت مقاعدها بالذرّيّة الرائعة الحسن والبهاء؛ وارتدى الجميع ثيابهم الفاخرة، وكأنّهم خارجون في استعراض ملكيّ.

بل تلك كانت غاية دلال حين خرجَت وعائلتها إلى الشارع، في إثر الاجتياح الفاجر، والذي دمّر كلّ بناء قائم، وخلَّف جدران أبنية منهارة أو فاغرة أشداقها، بفضل القذائف الثقيلة والخفيفة، تتدلّى منها أسرار المنازل، وكأنّها صرخات احتجاج مخنوقة... وبدَت الأشجار مقصوفة الأعمار محروقة، والشارع يغصّ بجرعات ثقيلة من حطام الزجاج والإسمنت... ومن تبقّى من الناس، في ذلك الشارع البائس، خرجوا

يجرّون أقدامهم جرًّا، وقاماتهم منحنية تحت أحمال ثقيلة من الحزن والإرهاق.

***

هكذا كانت حال المدينة، عندما خرجَت دلال، خروج ملكة تتفقَّد رعيّتها، وقد أشرق في عينيها نورهما الدائم التفاؤل والابتهاج، وارتفع العنق شامخًا متحدّيًا، والبسمة ظلَّت على عهدها: لم تتحوّل إلى السخرية، ولم تسمح للمشاهد المشوّهة بأن تسطو عليها، بل بدَت في أوج الحماسة، وكأنّ تلك المشاهد ولائم تثير الشهيّة إلى المزيد من التألّق والترفّع...

***

وكنت مارّة، عند أحد المفارق، لدى وصول موكبها. والذي دفعَني إلى الخروج من الملجأ، حاجة ماسّة للبحث عن بضعة أرغفة من الخبز نقتات بها، مع جماعة حوصرَت مثلما حوصرنا، وحُشرَت قسرًا مثلما حُشرنا، في أقصى جيوب القبو المظلم.

ولا أدري كيف حانتِ التفاتة من دلال باتجاهي، فأبصرَتني. وظلَّت عيناها المترفّعتان، ترسلان نظراتهما حياديّة لا مُبالية، فهي لا تسمح للمناظر المؤذية بأن تخترق حدودها. لكنّها أبصرتني... بكلّ استسلامي وألمي وشحوب وجنتيّ، وتهدُّل ثيابي، وتكسّر أجفاني... أبصرتني، ولم تتجاهل وجودي، بل ندَت عنها صرخة ناعمة اخترقَت نافذة سيّارتها لتصبّ في سمعي:

– منى الأسمر... انظر، إنّها منى الأسمر!

قالتها لزوجها مسجّلة شهادة بأنّها من هنا عبرَت، ومن النافذة تأمَّلَت، وأبصرَت من الناس مَن تعرفهم بأسمائهم الكاملة؛ وبالطبع لم يخطر لها أن تتجاوز هذا الحدّ، فتوقف السيّارة، كي تنادي «منى الأسمر» أو سواها، لتسأل عن الحال، أو لتعرف لماذا «منى» هنا، في حيّ ليس حيّها، وشارع بعيد عن مقرّ سكنها، وما الذي جاء بها وسط هذا الدمار، وأخرجها من تحفّظها، وحرصها على رصانة مظهرها؟...

تابعَت طريقها بكلّ ترفّع وحياديّة، شأن الملوك حيال الرعايا.

***

وأنا لاحظتها بطرف عيني، ولم يرشح من حركاتي ما يشير إلى ذلك، بل تابعْتُ السير، متجاهلة نظراتها؛ وبدأ يستيقظ، في أعماق كياني، تحدّ غريب لم أعرفه في ذاتي قبل تلك اللحظات! وكأنّما تلك القوّة الكامنة، والغافية في الأحوال العاديّة، انتفضَت لدى مواجهة النظرات الحياديّة، كي تدافع عن إنسانيّتها، وتُبرهن، لـ«دلال» وأمثالها، على أنّها تنبض بالحياة، وهي ليست من بعض الحجارة المنهارة، والزجاج المحطّم... بل إنسان، يتأجّج فيه كلّ ما في الكيان الإنسانيّ، من أحاسيس غامضة، وأسرار معقّدة...

ولتقول لها إنّ هذا الإنسان، ليس وحده في الوجود؛ فجذوره تتشابك بجذور الإنسانيّة في كلّ مكان، وأغصانه تعانق أغصانها وفروعها.

***

خَطوْتُ بضع خطوات، أمضغ هذه الأفكار، قبل أن أعود إلى ذاتي وأقبض عليها، متلبّسة بتلك الجدّيّة، غارقة في همّ هو ليس من همومها الحقيقيّة... وهنا تذكّرت سبب خروجي إلى الشارع، وما ينتظرني في القبو-الملجأ: عشرة أفواه جائعة، نامَت ليلتها على الطوى، وقد تسلّلتُ من بينها، آملة العثور على بضعة أرغفة من... الخبز.

وارثات الزبد

كنّ ثلاث فتيات، خرجنَ معًا من بين الأمواج:
واحدة تلبس شعرها الأسود كجناح الغراب،
والثانية تفرشه فوق كتفيها مثل سنابل القمح،
والثالثة ضفرَته جديلتين عاقلتين...
جلسن فوق الرمال الدافئة، بصمت، واكتفين بالإصغاء فقط، الإصغاء إلى قهقهة البحر.

***

قالت الموجة الأولى، موجّهة كلامها إلى صاحبة الشعر الليليّ:
– أمامك يفتح العزّ أبوابه ويجثو المَجدُ عند قدميك...
وكـرَّت خلفها الموجة التالية، فـأومـأَت إلى صاحبة الشعر الكستنائيّ:
– وأنتِ تعرفين الرحيل الدائم، ولا يستقرّ بك مقام... فقاطعتها الموجة الثالثة، وهي تغمز صاحبة الضفيرتين العاقلتين:

– أمّا أنت، فتظلّين واقفة عند حدود الزبد.

***

كانت الأمواج تتحدّث بلغة البحر، فلم تقوَ الصغيرات على فهم اللغّة الجديدة، واكتفينَ بتلقّف الأصداء المترجّعة بين انفتاح الشفتين وانطباقهما.

لكنّ الصغيرة الأولى، وكانت عاشقة البحر، ولهى به، وأكثر الرفيقات فضولًا، لم تكتفِ بالإيماء، بل اقتربَت تغرق رجليها الصغيرتين في الزبد المتخثّر بين الرمال، ثمّ تمدَّدَت على جانبها الأيمن، واضعة أذنها عند حافّة الموجة، وراحَت تصغي.

سألتها الرفيقة الثانية:

– ماذا تسمعين؟

فرفعَت إصبعها ووضعتها فوق شفتيها، دعوة إلى الصمت.

همسَت الثالثة:

– ربّما نادَتها حوريّات البحر!

فردَّت الثانية:

– لا أرى في ذلك عجبًا... أخبرتني ذات يوم، أنّ لها أكثر من صديقة في الأعماق.

– ياه!...

شهقَت الثالثة، ثمّ تابعَت:

– ليتها تستطيع حملنا إليهنّ.

– لا... لن تقدر.

– والسبب؟

– قالت لي مرّة: يجب أن ينبُت لنا زعانف، ونرتدي جلدًا من حراشف السمك...

فقلبَت الثالثة شفتيها:

– هذا الأمر أهون ممّا تتصوّرين.

***

عند هذا الحدّ من الحوار، توقَّفَت الصغيرتان، إذ سمعتا صرخة طافرة من مكان الرفيقة الأولى، المنتظرة عند حدود الموج.

تحوّلتا بنظرهما إلى اتّجاهها، فأبصرتاها جامدة مكانها، وبدَت كأنّها تخاطب كيانًا غير مرئيّ.

قامَت صاحبة الضفيرتين ومشت إليها:

– سوف أكتشف مع مَن تتحدّث.

وشدّتها رفيقتها بطرف جديلتها:

– الزمي الصمت واتركيها... إذا قاطعتِها، فقد تهرب الحوريّات...

– ومَن قال لك إنّها تحادث حوريّات الأعماق؟...

– حدسي... ثمّ تأمّليها، كيف تبدو كالمسحورة، وكأنّها خُطفَت إلى عالم غير عالمنا، لتقابل مخلوقات لا نعرف عنها سوى ما ترسمه الظنون.

***

من ذلك العالم، راحَت أبنوسيّة الشعر تسحب نفسها تدريجيًّا، وهي تعود إلى رفيقتيها، حاملة في عينيها أفراحًا غير أرضيّة، مغمورة ببسمات الملائكة.

قفزَت إليها الرفيقة الثانية:

– لم نصدّق أنّك تعودين... لقد أطلْتِ غيابك عنّا!

– صحيح؟ أنا لم أشعر بمرور الزمن...

– لاحظنا أنّك كنت تتحدّثين إلى الموج...

– بل إلى ما هو أبعد من الموج.

– هل يمكننا أن نعرف؟

– في إمكانكما أن تسألا الأمواج مباشرة... كلّ واحدة منها مكلّفة ببث رسالة.

– إلينا؟!

سألت الصديقتان بدهشة.

فقالت:

– إليكما، وإلى كلّ عين تلامس صفحة الماء.

– وتترجمين لنا الرسالة؟

– كلماتها ترفض أن تستعير أثوابًا غير أثوابها.

– لم نفهم...

– على كلّ طالب معرفة أن يُغرق عينيه في أعماقها، وينصت إليها، لا بأذنيه، بل بكلّ حواسّه اللاقطة.

– عدتِ إلى الكلام المبهم.
– بل هذه أوضح طريقة أتكلّم بها، لأنقل إليكما حديث البحر.

***

لم يطل الوقت بالرفيقات الصغيرات، حتّى كبرنَ، مثلما يكبر الصغار في القصص الجميلة، وسارَت كلّ واحدة منهنّ في طريق، فالمجد مدّ ذراعيه وتلقّف الأولى، وراح يطوف بها بين أرجاء مملكته، وينقلها من عرش إلى عرش، وعند كلّ نقلة، يرفع فوق رأسها تاجًا جديدًا... وكان الناظرون إليها يستغربون ظاهرة لديها، فبريق التاج لا يلبث أن يخبو حالما يتربّع فوق تاج شعرها الأبنوسي، ولا تعود الأنظار تنجذب إليه بمقدار انجذابها إلى بريق عينيها، وإلى الأجنحة الليليّة المتهدّلة فوق الكتفين.

أمّا الرفيقة الثانية، فقد سافرَت، وجنَت من رحلاتها أشهى الثمار. وبقيَت صاحبة الضفيرتين العاقلتين، عند حدود الموج، وصار البحر رفيقها ومرشدها، ومن معشره تعلَّمت الحكمة، والصبر على الشدائد.

وكان من عادتها أن تخرج كلّ صباح من دارتها الصغيرة، فتسير فوق الرمال، حافية القدمين، حتّى إذا ما وصلَت إلى نقطة بالذات، وقفَت وراحَت تصغي إلى أصوات الماضي... أو هكذا خُيِّل إليّ، ذات يوم، حين لقيتها مصادفة، ولم أكن أعرفها من قبل.

في ذلك الصباح، خطر لي أن أنهض مع الفجر، وأسير حتّى أبلغ البحر، وهو الطبيعة الوحيدة لهذه المدينة المحاصرة... فأذهلني أن

يكون هناك مَن سبقني، لا إلى المسير وحسب، بل إلى الاقتراب من حدود الماء!

من بعيد، لاحظْتُ امرأة تتمشّى فوق الرمال المرطَبة بدموع البحر، وتطبع آثار قدميها لحظات، ريثما تهجم الموجة، فتمحو الأثر، وكأنّها تثأر للتحدّي.

– تحبّين البحر؟

بادرتها بسؤالي، وأنا لا أعلم لماذا أتكلّم، وما الذي أريده منها... فردَّت، من دون أن تنظر إلى وجهي:

– نحبّ البحر كثيرًا.

تلفَّتُّ حولي، أبحث عن الجماعة التي باسمها تخاطبني، فلم أبصر أثرًا لمخلوق، وهذا ما أثار فضولي من جديد، فعدتُ أسألها:

– تتحدّثين بصيغة الجمع!...

ومرّة أخرى أجابَت، وهي تذرع الرمال، وتركّز بصرها على موطئ قدميها:

– ذلك، لأنّنا جماعة.

– لكنّني لا أرى سواك!

– هذا صحيح، فقد تركتُ رفيقتيَّ عند أطراف الموجة.

– وهما مثلك، تحبّان البحر؟!

أومأَت برأسها، من دون أن تكلّف نفسها عناء الكلام. وأثارني صمتها، فطرحْتُ السؤال من جديد:

– أين هما الآن... رفيقتاك؟

– هناك!...

وأشارَت إلى بقعة بالذات، تبعد عن مكاننا رمية حجر.

وكرَّرتِ الجواب:

– أجل، هناك... كنّا ثلاث فتيات، واحدة أخذها المجد، والثانية خطفها السفر، والثالثة بقيَت عند حدود الموج...

بلغَت هذه المحطّة الكلاميّة وصمتَت. وبدأَت الشكوك تساورني... فكَّرت في أنّ محدّثتي ليست امرأة عاديّة، فهي إمّا شاعرة، أو مجنونة.

وسمعتها تسألني، وكأنّها تبلَّغَت همس أفكاري:

– قولي، لي، ما هو الفرق بين الإثنتين؟...

– ماذا؟!

أطلقتُ السؤال صرخة عريضة... وأعدتُه:

– ماذا قلت؟...

– أجبتُ عن تساؤلك.

– لكنّني لم أقل شيئًا.

وهنا، فقط، أدارَت وجهها إليّ، ثمّ ابتسمت وهي تغرق عينيها في عينيّ، وكأنّها تحاول أن تستلّ حقيقتي.

وأطرقتُ بخجل:

– أجل، كنت أتساءل.

فردَّت تقول:

– وأنا أُجيبك بصراحة: يفشل مَن يحاول أن يقيم سدودًا وحدودًا بين العالمين.

وهنا، تجرَّأت بسؤال من نوع مختلف:

– وأنتِ، من أيّ العالمين جئت؟...

– من الجنون، إلى الشعر...

– ورفيقتاك؟

– واحدة صارَت شاعرة، وهي المتقدّمة بيننا... لكن، مع الأسف، خطفها المجد، وتوّجها.

– على الشعر؟

– والجمال والحقّ.

– هذا عظيم، ألستِ فرحة من أجلها؟

– بل أفتقدها: كانت صغيرة، جميلة ولطيفة: شعرها شلّالات أبنوس، عيناها بُحيرتا حنان ويداها ترفّان حولك، مثلما يرفّ الملاك بأجنحته فيطرد عنك الضيم...

– ولم تعودي تبصرينها، منذ زمان الطفولة؟

– بل أبصرها كلّ يوم، ألم أقل لك إنّها هناك؟... انظري، لا تزال ممدّدة عند الحدّ الفاصل بين الماء واليابسة، وهي تنصت بإخلاص، إلى ما تنقله الأمواج، من أسرار الأعماق.

– ورفيقتك الثانية؟

– لم تُنهِ رحلتها بعد. لا تكاد تبلغ محطّة، حتّى ينتفض جناحاها ثمّ يرفّان بها ويرفعانها.

– رفيقة غير عاديّة!

– ولا هي من أرض البشر.

***

قالت المرأة ذلك، ثمّ اختفَت. توارَت عن ناظريّ، وبقيت وحدي، عند الحدّ الفاصل بين الرمال الجافّة، وزبد الموج. وخُيِّل إليّ أنّي أبصر شقًّا ينفتح بين موجتين متلاحقتين ثمّ لا يلبث أن يلتحم، وتطفو مكان الشق، ضفيرتان عاقلتان.

ولمّا عدتُ إلى نفسي، حسبتُني وقعتُ في حلم من أحلام اليقظة، وأنّ الخيال جمح بي، وأراني ما لا يراه البصر في الحقيقة...

ثمّ تذكَّرتُ أنّه في الليلة البارحة، وبينما كنت غارقة في النوم، رنّ جرس التليفون في ساعة متأخّرة من الليل.

استيقظتُ مذعورة، ورفعتُ السمّاعة، وكانت على الطرف الآخر من الخطّ، صديقتي سمر، والتي اكتسبت عن جدارة، لقب السندبادة العصريّة!

كانت تخاطبني من «واشنطن»، العاصمة الأميركيّة، ولم أصدّق... فهي، عند ظنّي، مقيمة في باريس، حيث بنى لها الزوج قصرًا فخمًا، اعتقادًا منه أنّ ذلك يغريها بالاستقرار. وها هي تهتف بي من مقرّها البعيد، وقبل أن ينشر الفجر بشائره:

– أنا مشتاقة إليك، وإلى الوطن... أخبريني، كيف أحوالكم؟

فأجبتها، وأنا أنفض النعاس عن صوتي:

– كلُّنا بخير، وأنت؟

– مثلما عهدْتِني: رِجلٌ في الشرق وأُخرى في الغرب.

– أَوَلهذا السبب تتّصلين بي في هذه الساعة؟

– بل لأقول لك: إنّ صديقتنا دينا مريضة جدًّا.

– وهي لا تزال في باريس، أليس كذلك؟...

– كلّا. رجعت إلى لبنان... أرجو أن تبعثي إليها وردة حمراء، باسمي... وردة واحدة، لا غير... تعرفين دينا تكتفي من الوجود برموزه...

أعرف دينا جيّدًا، ومنذ تلك الأيّام الموغلة في القدم، ومن حين كانت الطفلة الأجمل، بيننا، نحن الرفيقات الثلاث، الخارجات من أحداق الموج...

ومن حين كان شعرها الأبنوسي يتدلّى، فيجلّل كتفيها ويتهدّل فوق ظهرها، وكأنّما يبحث له عن مسلك باتجاه الجذور.

– أتوصينني بشيء آخر؟...

سألتُ سمر، لأُسمعها صفاء صوتي، وأؤكّد لها أنّي خرجت من حالة النوم، وطردتُ النعاس عن كلماتي!

***

أجل، هذا ما تذكّرته، وأنا أُطارد طيف المرأة التي استقبلتني مع الفجر، عند حدود الموج، ثمّ تركَتني في حيرتي وتوارَت، قبل أن تسمع سؤالي الأخير، والمتعلّق بها شخصيًّا.

كان في بالي أن أسألها:

– أين أودعتِ الضفيرتين العاقلتين؟... وإلى متى ستظلّين واقفة عند حدود الزبد؟

ذاهبة إلى بيروت

يتوارى وجهُها الحاضر، خلف ضباب الذكريات. ويُطلُّ من الماضي وجه الصبيّة، مشرقًا بكلّ ألوان الأمل والطموح.

ها هي تستقبل «البوسطة» باكرًا، قبل طلوع الفجر، تلتقي المسافرين من أبناء قريتها «جورة السنديان»، يجلس كلّ واحد منهم على مقعده، محاطًا بغلالات الفجر الضبابيّة...

ألقَت تحيّة الصباح، وجلسَت على المقعد الخاص بها. لكنّها، على ما تذكر، لم تكن وحدها، فوق هذا المقعد، إذ انحشرَت فيه وحوله، من كلّ الجهات، الصرر والصناديق الخشبيّة والكرتونيّة، والسلال المنتفخة بما تحمل من خيرات الجورة... تحمله إلى بيروت. ولا تذكر وجهًا توقّف عنده نظرها داخل المركبة. إذ إنّ الوجه الراشح عذوبة وحلاوة بقي خلفها. لم يسافر في ذلك النهار بالذات. لكنّه عاد وسافر من بعد. ولم يحطّ جناحه في بيروت، بل رفّ به بعيدًا، وحمله إلى ما وراء البحار والأوقيانوسات. سافر إلى أميركا... إلى المستقبل الغامض المجهول.

تساءلتْ، أكثر من مرّة، عمّا إذا كانت ستلتقيه يومًا... كانت تطرح تساؤلها في الهواء، ولا تبحث عن أجوبة. وتذكر، من رحلتها تلك، أنّها كانت تحلم. في خلال ساعات الرحلة الطويلة، كانت ترسم أحلامها الملوّنة، وتطلقها فراشات. ولا تدري إلى أين توصلها. واحد من تلك الأحلام كان يحضّها على تحقيق نجاح تتحدّى به الساخرين منها: مِن أصلها وفرعها، من كونها غريبة عن مجتمعها، من بساطتها وطيبة قلبها!

لا يزال قلبها طيّبًا، وهو مرشدها الأوّل في دروب العمر. وهي تذكر جيّدًا كَم دفعَت ثمن تلك الطيبة غاليًا. وكَم عانَت بسببها من آلام!... لكنّها لم تتخلّ عنها. وتحلم بتحقيق نجاح، تتحدّى به الساخرين من شكلها. وهو لا يطابق مقاييس الجورة: «طويلة ورفيعة مثل الممغوط» تقول جارتها بهيّة، ثمّ تُضيف، بين الجدّ والسخرية: «روحي يا بنت، حطّي لك شويّة لحم. مثل العصا... قال صبيّة، يا عيني، قال!».

لا تزال على هزالها. ويأكلها القهر من عدم توافق شكلها مع المقاييس السائدة: أصابعها رفيعة، عروقها نافرة وخصرها نحيل، تزحل عنه تنّورتها... ثمّ وركاها: «يا حرام الشوم هالبنت! بتقول عصا»... سوف يظلّ صوت بهيّة يطاردها. يُزغرد في أذنيها. وهي تمعن في واجهة التحدّي، وتجاوز العقبات.

كانت العبارات تنصبُّ في أذنيها قاسية، تجرح أعماقها، وتتركها في فوران دمها وحرقة غيظها، وهي لا تعرف سبيلًا إلى ردّ الألسن، أو

الوقوف في وجهها... فهي تجهل فنّ الكلام، خصوصًا الذي يسمّونه في الجورة: «الكلام المغمّس، المبهّر». وتجهل معاني الكلمات، وكلّها مبطّن ومشحون.

ووجدَت أنّ الملاذ الوحيد، الذي يحميها، هو الطبيعة: يحويها صفاء الطبيعة وحيادها، ويُبعدانها عن مطارح الأذى...

وتحوَّلَت الطبيعة إلى عشيق سرّيّ، فلم يستطع أحد أن يرتقي بها إلى تلك المرتبة من العلاقة، وهي تتقدّم في الزمن، سوى الكتاب.

وحين ابتعدَت عن الطبيعة، وجـدَت أنّ الكتاب يمكن أن يصبح البديل. تحضنه، وتنزوي في أيّ مكان. ومعه، تتنقَّل إلى شتّى الأحوال، حتّى إذا امتلأَت من عطائه خرجَت تجرجر، خلفها، ما زوَّدها به من أحلام.

وهي الآن تحلم.

أمامها أربع ساعات أحلام. الرحلة إلى بيروت مسلّية. وكلّ ما تبصره جديد على النظر، وعلى حواسها جميعًا: وجوه الناس، واجهات البيوت، النوافذ المطليّة بالألوان... تدهشها الأبواب والنوافذ الملوّنة بالأخضر والأصفر والأحمر والأزرق... وبكلّ الألوان غير المعروفة في الجورة! وهي ذاهبة إلى بيروت. لا يمكنها أن تتصوّر المدينة: كيف تكون؟ هل هي نور أم لون؟... أصداء وصخب من الناس والآلات؟... أم هدوء خاص تنعم به النفس عند العشيّة؟...

قطعًا، هي ليست مسافرة إلى حقل «الشومر» حيث يُسمع حسّ السكينة، وحيث تتوقّف حركة الكون. وحتّى الرياح، تستكين حين تبلغ أطراف حقل «الشومر»...

وتذكر لحظة الوصول إلى بيروت. وبهجة اللقاء الأوّل، مع المدينة. كانت البوسطة «تمخر» الطريق وسط الزحام، غير عابئة بالناس، بأصوات الباعة وهدير العربات... ويطلق «حمادي»، سائقها الشجاع، زمّوره منذرًا كلّ مَن يعترضه. ويذَرُ في صدور الركّاب شعورًا بالراحة، بل بالفخر لهذه الجرأة، وتلك الغلبة.

هنا، يبزُّهم جميعًا. هو القائد. ويعلم كم هم معتمدون عليه إلى حدّ الاستسلام. وهي لم تكن في حاجة إلى خدمات حمادي. كانت تحمل ورقة مكتوبًا فوقها عنوان، لا تزال أحرفه نافرة في ذاكرتها حتّى الساعة: العم روفايل – فندق وندسور الكبير – ساحة البرج.

وفي الفندق تُقيم عمّتها، أدما. تُقيم مع زوجها والأولاد، في جناح خاص بهم.

من زمان استأْجَرا الفندق، واهتمّا بإدارته. وبات مصدر الرزق وملتقى المواطنين. لا يبحث أهل الجورة عن عنوان آخر سواه في بيروت، يتوجّهون إلى أوتيل وندسور الكبير، ويحملون إلى صاحبه همومهم وأثقالهم؛ وهو مستعدّ، في كلّ آن، لأن يُريحهم: يرافقهم إلى عيادات الأطبّاء، إلى السوق، لشراء الحاجات، خصوصًا حاجات المواسم والأعراس... هو يصرف «الشيكّات» الواردة من أميركا، من

الأبناء والبنات المغتربين... وعنده عنوان أفضل مصوّر، أو حلّاق، أو صائغ. يعتمدون عليه، ويَكِلُونَ إليه أمورَهم. وهو لا يُخيّب لهم رجاء ولا يقطع أملًا. حتّى باتَت زياراتهم لبيروت، تعني زيارة العم روفايل.

تساءلَت عمّا إذا كان العم روفايل قد تبلّغ خبر قدومها... وزيادةً في الحيطة كتبَت أمّها عنوانه، وطلبَت من السائق أن يرشدها إليه. لكنّها لم تكن في حاجة إلى الرفقة. إذ ما كادَت البوسطة تتوقّف أمام «كاراج حاصبيّا» حتّى أبصرَته قادمًا، بدربة الخبير في الوقت وتحرّك الناس. وكان متوجّهًا إلى الكاراج، تلك الفسحة المزدحمة بالناس، وحاجاتهم... والمسقوفة بالصفيح...

وهي لا تعلم كيف يُطابق وصوله لحظة وصول البوسطة. أهو الحدس؟... أم الدربة والخبرة؟... أم أنّ دافعه إلى موافاتها، لحظة الوصول، كان حسًّا بالأشياء، يكتسبه الذين يتداخلون في تشابك العلاقات الإنسانيّة، ويتواصلون معها بلا واسطة؟ ما همّ... المهم أنّه هنا. وقد زال قلقها...

اقترب منها، مرحّبًا، باشًّا:

– يا هلا، بمنى، أهلا بهالطلّة... عمّتك ناطرة، على نار.

قبَّلَته بشوق، وسارَت معه، تحمل حقيبتها الصغيرة، بينما أخذ عنها الحقيبة الأكبر، والتي تحوي ثيابها وسائر حاجاتها.

– ياه... ما أحلاكِ يا بيروت! وما أروع الوصول إلى قلبك النابض، وكلّ وعودك...

تعرف عمّتها جيّدًا. لا يكاد الأولاد يغادرون المدرسة لعطلة الصيف، حتّى تحملهم أدما، وتصعد بهم إلى الجورة، وتستأجر منزلًا متواضعًا، لكنّه كافٍ للصيف.

بعض المصطافين كانوا يقيمون في المدرسة. وكيل الوقف كان مسؤولًا عن المدارس. وكان يجد في الإيجار الصيفيّ دخلًا يسدّ بعض الحاجة، فيؤجّرها: كلّ غرفة لعائلة من بيروت. وباب الصيف واسع. وحين تضيق الغرف، يصعد الناس ليناموا فوق السطوح... والغرفة ليست سوى منامة. فكلّ الدروب والساحات ملاعب لأولاد الجورة وضيوفها.

تذكُرُ ملعبًا بالذات، عاش في وعيها، بكلّ تفاصيله: ملعب مدرسة البنات، مدرستها، تتوسّطه زيتونة دهريّة. أرضه مرصوصة رصًّا بالتراب والحصى. وهو مسوّر بجدار منيع، ويصلح للجري ولعب الكرة.

كانت تؤلّف، مع إخوتها وأولاد عمّتها، دائرة من تشابك الأذرع، وتظلّ عاجزة عن الإحاطة بجذع الزيتونة. وكان لتلك اللقاءات المسائيّة، في الملعب، طعمُها وذكرياتُها.

وتبقى في ذاكرتها، بقع الضوء التي لا تزول:

كانت عمّتها، مثل أمّها، لا تهدر لحظة، من أوقات الصيف، بلا عمل. ففي أيّام الدفء، تُعدّ مؤونة الشتاء: البرغل، الكشك، الزيت والزيتون، المخلّل وربّ البندورة، التين المجفّف والمعقود، والزبيب واللبنة بالزيت... أطايب الجورة، لها نكهتها ولا تُعادلها في الطعم مأكولات المدينة.

وعمّتها تُـدرك تلك الحقيقة، مثل سواها من أبناء الجورة، المغروسين في المدينة. وتحاول جهدها، أن تحفظ بعض التقاليد. وتنقلها إلى أولادها... لكنّ الأولاد، حين كبروا، باتوا يضيقون بالحياة الخشنة، وصاروا يطلبون النعمة على شواطئ بيروت.

كانوا يحدّثون منى عن «البلاج»، عن السباحة واللعب على الشاطئ... فيسيل ريقها شوقًا إلى تلك المطارح المجهولة، ووعود «الحياة المدينيّة» المرفّهة...

وها هي الآن في بيروت. عمُّها روفايل يحمل حقيبتها الحائلة الألوان، يمشي أمامها ويحكي، يصف لها المشاهد، يسمّي الشوارع والمعالم، ويعرّفها إلى العمارات والمؤسّسات... وهي تستمتع بنصف الوعي؛ أمّا النصف الآخر، فمخطوف منها، محلّق على أجنحة الفرح والذهول!

أخبرها أنّ عمّتها تنتظرها، غير مصدّقة أنّها قادمة ومتجاوزة كلّ الصعوبات والعراقيل، بما فيها تشدّد والدها وعدم سماحه بأن تخطو خطوة خارج القرية، إلّا مع أمّها:

– كيف اقتنع بو نبيل؟ كيف سمح؟...

يسألها، بين ازدحام الأسئلة والكلمات... لم تردّ على سؤاله. ولم تشأ أن تفتح تلك الصفحة القاسية من العلاقة. يكفيها أنّها هنا. وهي الآن في أوج السعادة، ولا تذكر من أبيها، سوى وجهه اللطيف، ونظراته الطيّبة... أمّا الغضب، وأمّا القسوة، فقد خلّفتهما هناك، بين أزقّة

الجورة. وهي عازمة على تحقيق طموحها، لتؤكّد للوالد، ولسواه، أنّها جادّة في سعيها. وسوف تتقدّم في الدرس. وتنجح. وتصبح موضع اعتزاز عائلتها، ثمّ تعود إلى الجورة، لتُعلّم وتنقل ما اكتسبَته إلى أبناء الجورة... ولكن، هل عادَت؟...

لم تكن المسافة بين «الكاراج» والفندق بعيدة. خمس دقائق سيرًا على القدمين. وها هو العم روفايل ينعطف يمينًا، من الشارع المحاذي لساحة البرج، ثمّ إلى زقاق ضيّق، خطا فيه خطوتين، فإذا هو على باب العمارة، حيث يقوم الفندق، في الطابق الثالث.

تبعته على السلّم، وعلى مدخل الدور الثالث قرأت «يافطة» بهتَت ألوانها قليلًا، وإنّما بقِيَ الخطّ واضحًا: «فندق وندسور الكبير».

تذكر كم شعرَت بالفخر، خصوصًا وهي تقرأ الصفة: «كبير»! إذًا هي في مكان معروف ويحتلّ ناصية الساحة الكبرى، «ساحة البرج»، ويرتفع عنوانه بشموخ. وتغاضَت عن تواضع المدخل المظلم. والدرج المتأكّل، ورائحة العفونة المنتشرة في المكان. ثمّ لم تلبث أن نسيَت تلك التفاصيل وهي تبصر عمّتها واقفة في باب المطبخ، ترتدي ثوبها المألوف، المعرّق بزهور حمراء وزرقاء. تسمّيه عمّتها «روب دي شامبر»... وتهفّ رائحة الصحّة، عطر «سوار دو پاري» ممزوج ببخار التقلية، والسمن.

بدا وجهها مشرقًا، مثلما تألفه، وشعرها القصير المجعّد مصفّفًا باتّقان. وقد شردَت إحدى خصلاته فوق الجبين العريض. تلك هي

تسريحة عمّتها. احتفظَت بها منذ الثلاثينيّات... بل العشرينيّات وعصر «الشارلستون». وعمّتها أوّل مَن قصّت شعرها «شاليش»، بينما حافظَت أمّها على «الشينيون». وكان «الشاليش» حدثًا، تغنّى به شعراء الجورة! وقد سمعَت والدها يردّد هذه الأغنية، بينما يعمل في الحقول والبساتين:

«قصَّت شاليشا عاللّيلا ويلّا ومثل شاليشا ما خلق الله»...

وظلَّت تفكّر في تلك الأغنية، كمدخل إلى عوالم النور والانشراح والانعتاق... وقصّ الشعر على آخر «موضة». والله خلق سيّدات طيّبات. لكنّها لم تعرف واحدة أطيب من العمّة أدما. غمرتها بين ذراعيها، وراحَت تقبّلها، وتتشمّم عبيرها وهي تردّد:

– أغمر فيك الجورة وأهلها... يا ألف أهلا وسهلا...

قالت ذلك، ثمّ أخذَتها بيدها، وقادَتها إلى غرفة صغيرة، ستكون غرفتها، حتّى يحين موعد الدراسة، وتنتقل إلى القسم الداخليّ في المعهد.

تذكر أنّها لم تَنَم تلك الليلة.

كانت تقفز من نافذة إلى شرفة. تتأمّل المشاهد الليليّة في ساحة البرج. لم يُطالعها أيّ برج، إنّما غابَت حتّى قاع الوعي، في حركة الأنوار، تتراقص فوق أكتاف البنايات الشاهقة، إعلانات مكبّرة لم تفهم غايتها. إنّما سحرَتها سرعة تحرّكها، وتبدّل المشاهد.

في الجورة، كان صندوق الفرجة يثير دهشتها. يحمله سعد، مع حلول الأعياد، ويوزّع الفرح الغامض في نفوس الصغار. وها بيروت، تبدو لها صندوقًا بلا غطاء، تعرض مفاتنها، وتدعوها إلى التأمّل واكتشاف الأسرار الغامضة خلف المناظر البرّاقة. وكان الفندق، من الجهة الخلفيّة، يطلّ على شارع ضيّق، شبه مغلق، تتصاعد من أركانه أصداء موسيقى صاخبة، وفي كلّ الأوقات...

لم تفهم، في حينه، لماذا طلبَت منها عمّتها ألّا تقف فوق تلك الشرفة المطلّة على الشارع، وعلى شرفات المباني المحيطة به، وفوقها ارتفعَت لوحات منوّرة، كتبَت فوقها أسماء غريبة لفتيات. وهي لا تشبه الأسماء المألوفة. فهي إمّا أجنبيّة: جاكلين، روز، سوزان؛ أو عربيّة: ريحانة، ميرفت، جيهان...

مَن تكون صاحبات تلك الأسماء المفخّمة؟ وماذا يفعلنَ؟...

لم تجرؤ على أن تسأل عمّتها. أدركَت، بالحدس، أنّ هالة من الشبهات والغموض، تُحيط بتلك الأسماء.. لذلك طلبَت منها العمّة الانتقال إلى الشرفة المقابلة والمطلّة على ساحة البرج: «منها يمكنك أن ترَي قلب بيروت ينبض. تذكَّري هذه الساحة... ساحة البرج».

وتذكر، مع المشاهد، رائحة الطبخ تهفّ، شهيّة، من المطاعم حول الفندق... رائحة الشواء والتوابل، تتصاعد بكثافة في أوقات الطعام، فتثير شهيّتها... وتُدرك عمّتها كم هي جائعة وتائقة إلى المذاق الجديد. ولأنّها انشغلَت بها، فإنّها لم تتمكّن من إعداد كلّ الوجبات.

لـذا، استعانَت بمطعم «القبرصلي» المجاور، وكانت تطلب منه الحمّص والفول، و«اليخني» مع الرزّ... ويأتي الطبق، محاطًا بمقبّلات لذيذة: الفلفل، المخلّل، الفجل، النعناع، البصل الأخضر والزيتون... وتأكل بلذّة ستظلّ تذكرها، مدى الحياة...

قالَت لها عمّتها صباح اليوم التالي:

– وقتنا ضيّق. وأنت في حاجة إلى ثياب وحذاء، وأشياء ضروريّة للمدرسة. نشتريها اليوم. سوف أصحبك للجولة الأولى في السوق..

صحيح، هذا يومها الأوّل. استعدَّت باكرًا، ارتدَت أفضل فساتينها وسرَّحَت شعرها، مالسًا، خلف أذنَيها؛ وأشرقَت في عينيها أنوار الأمل. رافقَت عمّتها، في تلك الشوارع الضيّقة، حيث الناس في زحام دائم، وحيث تقوم المخازن، منتفخة بما تحوي، تلفظ البضاعة حول المداخل، وهي تتقابل، أو تتجانب أو تتظاهر.

أشارَت عمّتها إلى سوق بالذات وقالت: «سوق سرسق. الأسعار هنا معقولة. والبضاعة جيّدة».

وكلّما دخلَت مخزنًا، كان صاحبه ينهض بهمّة ومرح، يرحّب بهما، ينادي عمّتها باسمها ويسألها عن الزوج والأولاد...وتطلب عمّتها الأقمشة والثياب الجاهزة، وتقيس على قدّها الصغير، ويسألها صاحب المخزن عمّا إذا كانت تحبّ هذا اللون وتلك الموضة...

في ذلك اليوم الأوّل، مشَت ساعات، ولم تتعَب، ولمّا سألتها عمّتها، قرابة الظهر، عمّا إذا كانت تعبَت، وتريد العودة إلى الفندق،

قالت: «لا. أنا لم أتعب، لكنّني لا أريد أن أُتعِبَك أنتِ»... فغمرَتها عمّتها بحرارة، وهي تقول:

– لا، يا حبيبتي. تعبُكِ راحة. لكنْ نَمُرّ على «الأوتوماتيك» ونأخذ صحن «بوظة»...

وهي تحبّ البوظة! وتتوق إلى أن تُشبع منها نهمَها ولو مرّة في العمر. ذاقَت طعمها من قبل في الجورة. في عزّ لهيب الصيف.

كان المعلّم «عاصي» يحمل عدّته، ويصعد إلى الجورة: يجلس في الساحة، ويدير القرص السحريّ، داخل العلبة، ويلعلع صوته بالنداء: «تعال، يا مشوّب. بوظة بالحليب»... وكانت تهرع، مع إخوتها، يحملون الأطباق الصغيرة وخمسة قروش، أو بيضة طازجة، يشترون بها كوبًا، أو كوبين، حسب النقود... وتذكر أنّها لم تمارس أنانيّتها، في التفرّد بشيء، سوى البوظة. كانت تهرب بالطبق إلى زاوية، تتلذّذ بلعقها على مهل، وتخشى أن تنتهي قبل أن تروي غلّتها وتُشبع نهمَها.

والآن عمّتها تطلب لها: بوظة، مشكلة: بالحليب. بالفريز والفستق واللوز والشوكولاتة! وطلبَت لنفسها «شوكولامو».

لأوّل مرّة تسمع هذا الاسم الغامض. وظلّت تختلس النظر، إلى الكأس الشامخة بالحلوى المثلّجة، مع «الكْريمْ». تغلّفها طبقة من «الشوكولاتة» السائلة، تُسيل لعابها وتثير شهيّتها إلى المزيد. وتتمنّى لو تظلّ عمرها كلّه، تأكل بوظة... وانتهَت، في تلك الجلسة إلى قرار مهمّ: في المرّة المقبلة، سوف تطلب «شوكولامو».

المدينة مغارة السحر الغامضة والمجهولة... وهي تقف مع عمّتها، عند العتبة، في يدها المفتاح، وفي قلبها توق إلى المزيد من المعرفة... هي تتعلّم بسرعة، تدرس حركات العمّة وسلوكها وتتعلّم منها؛ لا يفوتها مشهد، لا شرفة ولا واجهة. عيناها تلتهمان المناظر بشراهة وشهيّة، لا توازيها سوى شهيّتها إلى البوظة.

تذكر، أيضًا، من تلك الجلسة، المشهد الداخليّ: سيّدات أنيقات، معطّرات. الشعر ملوّن أشقر، بنّيّ أو أسود، مصفّف بأناقة على آخر موضة، العيون مكحّلة، الشفاه والخدود محمّرة والثياب متحرّرة؛ والأحذية صنادل مفتوحة، تبرز من خلالها الأقدام، لدنة بيضاء، وقد طُلِيَت أظافرها المدلّلة بالألوان الملائمة. ولا تفوتها المقارنة بين أقدام البيروتيّات وأقدام نساء الجورة، بالكعوب المشقّقة، والنعال الغليظة، والأظافر المهملة... وكلّها، تنسجم مع الشعر «المهوش» أو المدجّن تحت المنديل أو «الوربة»... حتّى إذا ما راحَت تقارن بين الوجوه، طلعت لها وجوه نساه ضيعتها محروقة بشمس الصيف، ملفوحة بصقيع الشتاء، مثناة على الطبيعة... لكنّها، في تلك الحالات كلّها، تظلّ حافظة دفء القلب وبساطة العين.

أخرجها من سرحتها تلك، صوت عمّتها:

– شو قولك، يا منى، نروح ناخذ لك صورة. صرنا قرب «ميني فوتو». بياخذ لك صورة حلوة، قبل دخول المدرسة؟...

صورة؟... لها؟... لم يخطر في بالها أن تتصوّر. الصورة الوحيدة التي تعكس وجهها، أُخذَت لها، مع العائلة، وهي في السادسة من عمرها. وكان أسعد مصوّرًا معروفًا من حاصبيّا، يزور الجورة من حين إلى آخر. يصوّر العائلات والأفراد، في المناسبات ومواسم السفر... وفي تلك الصورة كانت تتأبّط كتابها للقراءة الأولى: «دَرَجَ عَرَجَ»... هذا عنوانه!

ظلّ التلامذة يبدأون فيه أجيالًا متتالية. وحتّى لو تبدَّلَت الأجيال، فالكتاب بقِيَ على حاله.

وكانت في تلك الصورة، ترتدي ثوبها المزهر وتقف إلى يسار والدتها، بينما وقف أخوها نبيل، إلى جانب أبيه. وخلف الوالدين، مكان الجدّة. وفوق حضن الأب جلس الولد الثالث، جريس، بينما ضمَّت ذراعا أمّها، الطفل الرضيع الياس... عائلتها، كانت لا تزال في طور النمو، ولم يكتمل عدد أفرادها بعد...

وتذكر تفاصيل الصورة. وحتّى وقت أخذها أسعد، في الأصيل، أوقفهم جميعًا في مواجهة الشمس المائلة إلى المغيب. وحين تتأمّل تلك الصورة، لا تصدّق أنّ تلك الصبيّة النحيلة ذات العنق الزرافيّ، والخدّين الشامخين، هي أمّها، الرازحة تحت وطأة الأعمال الملحّة ليلًا نهارًا، لكي تؤمّن للجميع الراحة، والعيش الطيّب! كانت الصورة، مناسبة مهمّة، استعدّ لها الجميع، بأفضل ما في حوزتهم من ثياب وحلى. وتظلّ هي في سنّ السادسة، حتّى ولو جاوزَت العاشرة الآن...

قرأَت اللافتة المرفوعة عند مدخل الستوديو: «ميني – فوتو».

ثمّ دخلَت، تتبع عمّتها... قادها الرجل الأصلع الطويل، من الممر إلى غرفة داخليّة معتمة! أجلَسَها فوق كرسيّ وسلّط عليها النور، من مصباح جانبيّ، ثمّ أنار مصباحًا آخر، من فوقها، ومن الجانب الآخر... بهرَتها الأنوار. لكنّها بقيَت ثابتة، جامدة. ظلّ المصوّر لحظات، يحوم حولها، يمدّ يده، يحني رأسها، إلى الأمام، ثمّ قليلًا إلى الجانب الأيمن: «لأ... كثير. قرّبي شويّ إلى اليسار» ثمّ: «ستوب»... وقفز خلف «الكاميرا»، وطلب منها أن ترفع نظرها قليلًا إليه وتبتسم و... «تريك»... انتهى.

دفعَت عمّتها المبلغ المطلوب، واستلمَت وصلًا، عليه موعد التسليم بعد يومين.

كم أحبَّت نفسها في تلك الصورة!... ألأنّها صورتها الفرديّة الأولى؟ أم لأنّها أُخذَت لها في تلك المناسبة السعيدة: زيارتها الأولى لبيروت؟...

ظلَّت تتأمّل نفسها في الصورة، ولا تملّ... وتبصر فيها إنسانة مختلفة عن تلك التي تواجهها في المرآة الصغيرة، في غرفتها، بكلّ تموّجات القلق والحزن.

خارج «الستوديو» تابعَت السير مع عمّتها على الرصيف الذي يصل باب إدريس بساحة البرج. ظلَّت تتأمّل الواجهات ولا تتعب. لكنّها لم تتوقّف للشراء، لأنّ العمّة اشترَت لها كلّ ما تحتاج إليه.

انعطفَت بهما الطريق إلى اليسار، باتّجاه سينما «ريفولي». صور الممثلين تشدّ نظرها. رجال، نساء، بكلّ الألوان الممكنة. تطلّ وجوههم، ضاحكة، عابسة، مهدّدة... حسب الدور المطلوب.

– تحبّين السينما؟

تسألها عمّتها. توقظها من سرحتها.

– أحبّ...

ردَّت ببساطة، خائفة أن تثقل عليها بطلب جديد.

أوصَتها أمّها، قبل أن تغادر: «خلّيك خفيفة، نظيفة... والغريب لازم يكون أديب، يا بنتي»... لكنّها تحبّ هذا الاسم الغامض: السينما.

وعدَتها عمّتها بمشاهدة فيلم مصريّ، ذلك المساء. ولم تترك لها الفرصة لتعترض: اقتربَت من شبّاك صغير، وكان أمامه صفّ من الناس، ينتظرون أدوارهم لشراء التذاكر، ووصل دورها، اشترَت ثلاث تذاكر: «نحضر حفلة السادسة مع عمّك رفّول»...

لم تعُد الأرض تحملها. فرحتها تزغرد. تكاد تطير بها. هل يمكن أن تجتمع تلك الأحداث جميعها في يوم واحد من العمر؟...

إنّه يوم تاريخيّ من عمرها. مسجّل بأحرف نافرة لا تُمحى.

تبعَت عمّتها على السلّم، وكان العم روفايل ينتظر: «طوَّلتو الغيبة»... قال، باشًّا... ثمّ تابع: «الهيئة اشتريتو بيروت وما فيها». وردَّت عمّتها، وهي تنزل الأكياس والعلَب: «الجميع سلَّموا عليك.

كلّ أصحابك من سوق سرسق، حتّى سوق إياس سألوني: وين الأستاذ؟ وكيف حال الأستاذ؟...»

– ومنى كيف حالها؟

سألها، وهو يربّت خدّها.

فابتسمَت وحنَت رأسها قليلًا: كيف يمكنها أن تـردّ، وبتلك البساطة تصف له حالها؟

ولم يزد في إحراجها، بل عاد يجلس خلف مكتب الاستقبال، في الصالون، وهو يؤكّد لها:

– يا منى... هالمدينة فريسة الشاطر. المجتهد والقويّ يصل والكسلان البطّال بيشتغل عتّال.

درسها المفيد في المدينة، حفظَته باكرًا. عليها أن تجتهد. وسوف تُبرهن للجميع عن قدرتها.

لهبة الحماسة المتّقدة في صدرها تدفعها إلى المزيد من العلم والمعرفة. لكنّها ظلَّت جاهلة ما قصدَه العم روفايل بقوله:

– «البطّال بيشتغل عتّال».

وهل صحيح أنّ «العتّال بطّال؟»...

في المساء عاد أولاد عمّتها من البحر. سمعتهم يحكون قصص مغامراتهم ويصفون مهارتهم في السباحة. كبيرهم، فؤاد، رافق البحار في قارب صيد. وسامي ركب «الحسكة». لكنّ صغيرهم، عادل، اكتفى بالسباحة في «البيسّين». وفيما هم يقصّون، كانت وجوههم تفور

بالحيويّة والمرح... أبناء المدينة المرتاحون! ثمّ سمعتهم، يتصايحون: مَن يأخذ «الدوش» أوّلًا...

الاسم جديد عليها. كانت أحيانًا تسمعهم يردّدونه، ولا تفهمه. ففي بيوت الجورة، يستحمّون بالكيلة. يملأون «الطِشت» ماء باردًا أو ساخنًا، ويغرفون منه بالكَيلة، ثمّ يسكبون ما غرفوه فوق رؤوسهم وأجسامهم. أمّا «الدوش» فهو من الابتكارات الكثيرة التي تتعرّف إليها. لكنّ الاسم لم يكن وحده ما يُحيّرها، بل الفعل كذلك.

وإذا كان الأولاد عائدين من السباحة، في البحر، فلماذا يحتاجون إلى «الدوش»؟

لكنّ وعود النهار كلّها تراجعَت أمام موعد المساء في سينما «ريفولي». تذكر أنّها، حالما وطأَت عتبة الصالة المظلمة، نسيَت عمّتها وزوج عمّتها، والكون بأسره، وتسمَّرَت نظراتها فوق الشاشة. فوق الجدار، يتحرّك الناس، وكأنّهم في حياتهم العاديّة. ويقتربون أحيانًا، حتّى تكاد يدها تلامس رؤوسهم وأجسامهم: «أيّة عجيبة، هي السينما!»...

استقبلهم فتًى، نظيف، يرتدي قميصًا أبيض ناصعًا، وسروالًا كحليًّا مرتّبًا. أخذ البطاقات من العم روفايل ودعاهم ليلحقوا به. وجلسَت هي بين العمّة وزوجها. وكان الإثنان يتنافسان على شرح ما يحدث. وهي، لم تكن تريد أن تفهم. فقط، تودّ لو تسرح، إلى ما لا حدود، وتغيب. تخرج من جسمها، من مقعدها ومحيطها، وتغيب على متن

البساط السحريّ، وتلك الغمامة الفضّيّة... مع الموسيقى، والكلام اللطيف، العذب. مع الوجوه الجميلة واللطف، وخفّة الدم... لغة جديدة، تحاول فهمها، من تسلسل أحداث القصّة. هي حكاية كلّ يوم: شاب وفتاة... وتتأمّل الفتاة، وتشعر بأنّها هي. وهذا الشاب يشبه فارس أحلامها. الفتى الذي تتمنّاه فتاها...

يقولون في الجورة: «انتبهي يا بنتي. لا تطلّعي إلى وجه الشاب»... ويقطعون، بالأقوال الحازمة، الطريق على العواطف، فتكمن، تغور، حتّى قاع الوعي، وتبقى كامنة راقدة إلى أن تأتي الساعة. ولا تعود هناك، طاقة على احتمال ما يجيش في الصدور. فتتفجّر الحكايات يرويها جيل عن جيل.

آه، لحكايات الحبّ في الجورة... حتّى ليلى، صديقتها الحميمة، كانت تكرّر أقوال الجدّات والأمّهات!

لكنّها، في هذه القاعة المظلمة، بعيدة. لا تُبصرها العيون. ولا تنالها الألسن. وتتمنّى لو تقابل هذا الشاب يومًا... كانت تُحسّ أنّه يخاطبها، ومن خلال الأغنيات، يوجّه إليها الرسائل، فتتسلّمها سعيدة، هانئة وآمنة من عيون الرقباء... ظلّت تلك الأغنيات ترافقها، وتُهدهد أحلامها وتعدها بأنّها هي أيضًا سوف تلتقي مثل هذا الفتى وتصبح مثل البطلة: حلوة، أنيقة، ذكيّة و... محبوبة...

ثمَّ، فجأة، انتهَت الحكاية. لكنّ نظرها ظلّ مشدودًا إلى الشاشة وكأنّما تبتهل إليهم، ليعودوا... ثمّ سمعَت صوت عمّتها، وكأنّه آتٍ من أعماق هوّة بعيدة:

– أعجبك الفيلم يا منى؟

– نعم...

قالتها بكثير من الاختصار. لم تكن راغبة في الخروج من عالمها الداخليّ.

وحين نهضَت عن المقعد، مشَت ويدها في يد عمّتها، تشعر بشيء من الخيبة، لأنّ الفيلم انتهى... الحكاية انتهَت، وهي عادَت إلى الواقع الذي لم يَعُد إلى عهده السابق، ولن يعود...

وحين ذهبَت لتنام، كانت تُضيف ألوانًا جديدة إلى عالم الأحلام...

البلبل... صاحب المواويل

كان يدخل «الجورة» عند المساء، ممتطيًا ظهر بغل قويّ، يجتاز به المسافات الشاسعة، التي تفصل قريته - «مليخ» - عن «جورة السنديان».

لماذا أحبّ أن أتذكّر هذه التفاصيل الآن؟... وهل كان، حقًّا، يجيء عندما تغرب الشمس؟... أم أنّه انطباع في ذاكرة الطفولة، ولا يزال مسيطرًا حتّى الآن؟

تصعب الإجابة الأكيدة عن مثل هذه التساؤلات، ومن هذه المسافة الزمنيّة... إنّما الأكيد هو أنّه كان يأتي في المواسم. وكنّا نستقبله عند مدخل «الجورة»...

ونجري مع تيّار من الفرح والحماسة ينتعش، في إثر نقلات بغله القويّ، الواثق بخطاه وبحِمْلِه... ثمّ لا يلبث ذلك التيّار أن ينتقل إلى كلّ مَن يراه أو يأتيه خبر قدومه:

– المليخي جاء.

***

البلبل الغِرّيد يختار شجرة الزنزلخت مجاورة النافذة. يطلق من فوق قمم أغصانها أنغامه، مرحة تارةً وطورًا مشحونة بالأشجان.

أتراه الشوق، يحشد الحزن والشجن؟... أم أنّ ذلك من بعض التنويع في أنغام الغرّيد؟...

وهو يتابع الإنشاد، ويرسل أنغامه على مد الأثير، وكلّ نغم يختلف عمّا سبقه. تنهض الطفلة... (تلك التي تتحرّك الآن في أعماق الذاكرة) تنهض من فراشها، وتخرج إلى المصطبة، وكأنّما الصداح يشدّها إليه بخيط من السحر... وكأنّما لها وحدها شَدْوه... تقف، عند حافّة المصطبة مغيَّبة عن زمانها، والمكان... أحيانًا تسير حافية القدمين، حاسرة الرأس، باتجاهه... وثوبها الشفّاف يتطاير حولها، كاشفًا ما يُفرَض عليها ستره... وهي غير مبالية... فهناك دعاء ملحّ وضاغط، يدعوها. ولا تعود تأبه لما يحيط بها، أو تصغي إلى كلام يوجّه إليها. وتقف عند أقصى حدود المصطبة، عند أقرب نقطة من شجرة الزنزلَخت، وتصغي إلى دعوته.

وهو، كأنّما يُحسّ بها، يمضي في تصعيد الصداح، وفي شدّ طاقاته إلى أقصى مداها، بينما تظلّ هي في تلك الحالة من الذهول، والإصغاء. ويسيطر النغم على كلّ ما يأتي من داخل البيت، من أوامر أو كلمات... وأيّ أمر، أيّ صوت يقوى على انتزاعها الآن، وقد بلغ بها فعل النغم ذلك الحدّ من الزوغان؟... بل رفعَها إلى تلك المرتبة من النشوة؟

***

والمليخي كان يجيء مع المساء، ممتطيًا ظهر بغله القويّ...

في الحقيقة أنّ ذلك البغل لم يكن يخصّه، بل صاحبه «مكاري» طالما طوّع المسافات، قبل أن يهدر محرّك أوّل سيّارة في أجواء الجورة.

وكان المكاري يسير بجوار البغل، يمسك بالرسن، حتّى لا يفلت منه الحيوان الشموس... ويبقى المليخي ثابتًا فوق الجلال المزخرف، بجسمه الضخم، يجثم كالطود، أو كأنّه قطعة من تلك الجبال المحيطة بالمكان، لولا سواد ثوب يجلّله، كثيفًا، فضفاضًا من حوله ويختلف عمّا يرتديه الرجال في الجورة.

وربّما تشكّل لديه بفضل تنقّله المتواصل، بين البلدات والقرى، فاقتبس من بعض أزيائها... أو أوحِيَ إليه بذلك...

وبرغم حالته، فإنّ تلك الثياب تبدو نظيفة. وبرغم غبار الطريق...

لكنّ اللافت في إطلالته، تلك القبّعة السوداء، وكأنّها قمّة الجبل، وتحتها، النظّارتان الغريبتان مربّعتان حول العينين، تغرز أطرافهما تحت حدود الجلد، فتغلّفان، بسوادهما، السراجين المطفأين...

***

قرأَت الطفلة، فيما بعد، أنّ بعض الناس اكتشفوا تحوّلًا غريبًا عند البلابل، فهي إذا سُمِلَت أعينها، يزداد صداحها عذوبة ونقاء... فراحوا يقتنونها في بيوتهم...

أولئك الناس الذين يهمّهم الطرب، ويهزّهم سماع النغم العذب، راحوا يحصدون البلابل من البراري، في المواسم، مثلما يحصدون

سنابل القمح من الحقول، ويجعلونها في أقفاص، ثمّ يقفلون عليها الأبواب، بعدما يسملون أعينها.

وكانت البلابل، من قبل، حرّة تصدح بمرح، وتفضّل الإنشاد من فوق شجرة الزنزلَخت التي لا تُؤكل ثمارها، بدلًا من أن تختار شجرة التين أو العنّاب. لكنّ الناس سجنوها في أقفاص بعدما سملوا أعينها. ولم يكشف لنا العلم أسرار تلك العمليّة، والعلاقة التي تقوم بين التعذيب، وجودة النغم، وهل هي محصورة بالبلابل من دون سائر المخلوقات؟

تلك أمور ربّما يكشفها البحث العلميّ، في المستقبل... وقد تكون مسجّلة في بعض الدفاتر القديمة، لكنّ الناس يفقدون الصبر، وليس لديهم وقت للانتظار أو البحث، فهم يريدون أن يشنّفوا آذانهم بأعذب الأنغام، وبأسرع ما أمكنهم. لذلك، راحوا يسملون أعين البلابل، والكناري، والحساسين، وكلّ صادح بنغم يبدّل رتابة الأيّام، ويزيل الكربة عن القلب، ويسمو بالروح إلى مشارف علويّة...

وحين اكتشفوا أنّ السمل يأتيهم بتلك النتائج الباهرة، أخذوا يفاخرون بمهاراتهم وحذقهم...

أولئك الأقوياء الذين يملكون الأشياء (المدن وساكنيها) لهم قدرة مهولة على اجتراح العجائب!

***

ذلك المساء بالذات، كان المليخي قد وصل، مع بداية موسم الزيتون. والجورة تلمسُ في المواسم تحقيق أحلامها. والخريف، فصل الجني

والقطاف، ينتظره الناس من عام إلى عام، فيجيء ويملأ الخوابي بالدبس والزيت والزيتون، والكوايز بالبرغل والكشك والعدس والدقيق، والنعاير بالعسل والتين المعقود ومربّى السفرجل والقاورما... ويملأ المدَّ بالحطب، وقود نار المدفأة، و«التبّان» بالتبن عليق الماشية...

وجاء دخول المليخي، في موكبه المألوف، يمسح الرتابة من العيون، ويسكب فيها جرعات من الانتعاش. وبغله القويّ يخبّ في الدروب. تدقّ حوافره صفحة الطريق غير المعبد (إذ لم تكن نعمة الإسفلت قد بلغَت الجورة). وكأنّما، في دخوله، بعض زهو وافتخار يحسّه الروّاد وهم يعبرون السبل أوّل مرّة... والمليخي يترنّح فوق متن البغل القويّ، ومن حوله سرواله الأسود الفضفاض، بجيوبه المطرّزة، وقد لفّتَ كتفيه عباءة سوداء يرتديها في كلّ الأوقات، مثلما يعتمر قبّعة «الإستراكان» السوداء، و«الكرنك» المحيط بالسراجين المطفأين.

تتهلّل جورة السنديان لدى قدومه. تفتح الأمّهات الأبواب، وتطلّ العذارى برؤوسهنّ من النوافذ، ويهبط الشباب إلى الساحات متمنطقين بالجزَم والسراويل الضيّقة، الملائمة للرقص حين تكون زيارة المليخي لفرح، أو لرجوع مهاجر...

لكن... وحين يترنّح جرس الكنيسة وتئنّ دقّاته، يقطع بها نياط القلوب، فإنّ لوقع حوافر البغل، وهو يخبّ في الدروب وفوقه المليخي،

بكامل قيافته... إنّ لدقّات حوافر البغل عند ذاك معنى آخر، مرتبطًا بالموت والندب الحزين... يُبَكّي الصخور!

***

لا يعرف البلبل الصدّاح فرقًا بين فرح القلب ودموع العين، حين يُقبِل على الإنشاد، وينطلق على سجيّته... ولكن، عندما يَسملون عينيه، يتجلّى النغم ولا يبقى هناك وَصْفٌ قادر على الإحاطة به...

والطفلة ترشف الأنغام بشغف، لا عن طريق السمع فحسب، بل ومن خلال المسامّ النابضة، المتفتّحة في كيانها الطريّ...

لماذا كانت تحسّ بأنّ البلبل يعي ويعلم أنّها في الجوار؟...

وهل عمدًا كان اختياره شجرة الزنزلَخت القريبة من حافّة المصطبة... بدلًا من أن يتنقّل بين أغصان تينة الجيران، العامرة بالثمار الشهيّة، وأكواز التين، شديدة الإغراء في الصباح، يقطر العسل من ثغورها المتفتّحة، وإليها تتسابق أسراب الطيور؟...

***

في ذلك المساء، كان قدوم المليخي تلبية لدعوة فرح، فقد قرّر منصور النمر العائد ثريًّا، من بلاد الاغتراب، أن يزوّج ابنه، واختار له أجمل فتيات الجورة. وكان من الطبيعيّ أن يدعو المليخي ليكتمل الفرح بحضوره. ثمّ إنّ لتلك الدعوة معناها وشأنها في حساب الجماعة.

وكان بغله، حين دخل الجورة، من جهتها الغربيّة، يترك في أسماع الناس إيقاع حضوره، وكأنّه النداء بلا كلمات، يفهمه الجميع، ويدركون معناه. وهو ظلّ يترنّح فوق مركوبه، بقامته الجهاميّة ووجهه القويّ الصارم، قلّما يفصح عن مشاعر، تظلّ كامنة، إلى أن ينطلق القول هدّارًا يهزّ حضور الجماعة، ليبلغ الجذور الراسخة في عمق المكان...

***

تسجّل الطفلة الأنغام وكأنّها تجمع حزمة من نور الشمس، تعلم أنّها في يدها... لكنّها، في الوقت ذاته، تدرك استحالة حبسها... وتعلم الطفلة، بالحدس، أنّ البلبل ربّما هو باقٍ في الجوار إلى حين، ولن يلبَث أن يرحل، مثله، مثل سائر الطيور الراحلة...

وهيهات أن تعلم إلى أين يحمله جناحاه!؟...

***

كانت المرتبة قد نُصبَت في صالون الاستقبال، في دار منصور النمر. أعدّتها أمّ العريس، وزيّنتها بأجمل ما في حوزتها من زخارف. لكنّ العرش المحفوظ للمليخي يتفوّق على «عرش الصمدة»، حيث يجلس العروسان، يتقبّلان التهاني ويصغيان إلى «الجلوة» تثبّت فرحتهما. ويحاولان، وسط هذا المهرجان، أن يتقاربا وبسرعة، ليصبحا زوجين حقيقيين. وكأنّما الأغنية، في الجورة، هي من بعض مستلزمات

الزفاف، لا تكتمل الأفراح من دونها. وهي، حين تنطلق من حنجرة المليخي تقذف الروابط حتّى الأعماق وتثبّتها إلى الأبد.

***

كانت الشمس تزحف من خلف قمم حرمون، وحين ارتفعَت بعضًا من قامة، راحَت شعاعاتها تنسكب في عيني الطفلة، تزيد مرحها مرحًا، وتغرس في عينيها أملًا، وتزيل شكوكها، مؤكّدة لها أنّ البلبل لن يرحل بتلك السرعة. فهو يواظب على الحضور كلّ صباح، ويرنّم لها وحدها تلك الأنغام... لها وحدها يطلق الشدو الرخيم.

هرعت إلى غرفة الطعام، وعادَت بحفنة خبز من بعض طعامها، تعبيرًا عن شكرها، وفرحتها... وحين عادَت إلى المصطبة، لم تعد تسمع للبلبل حسًّا.

رحل.

بلبلها الجميل الحبيب، لم ينتظر لحظات، ريثما تعود إليه بحفنة خبز، هي واسطتها لتعبّر له عن الشكر والامتنان... أم تراه حسب غيابها إهمالًا؟

***

كان الحضور المحتفلون بالفرح، لا يعلمون من أين تجيء تلك الأنغام لرجل سُمِلَت عيناه باكرًا، في فجر العمر... حتّى إذا هدر صوته، مثل رعد مفاجئ، ارتجَّت بهم القاعة، وخيّل إليهم أنّ الجدران تهتزّ،

والسقف يترنّح، فيكاد يتشقّق بتأثير «الموّال»، يطلقه المليخي من فوق عرشه الراسخ:

– أوف... أوف... أوف...

يده اليسرى تتمسّك بحافّة المقعد، بينما اليد اليمنى تحيط بأذنه. وكأنّما سمعه فوجئ بما تطلقه الحنجرة... ويميل برأسه قليلًا، ثمّ يكرّر:

– أووف...

وتتمدّد «الأوف» أنغامًا منتزعة من أعماق الرجل، ومن صميم كيان الجماعة، التي تتقارب، لتصبح كتلة واحدة، مرصوصة حوله، تصغي إلى قوله، يطفو مرحًا، يرفّ في الأجواء، فيما هو منتزع من سحيق الأعماق الموجعة. وفيما الميليخي، البلبل المسمول العينين منذ طفولته، يطلق أنغامه، كان الناس يلاحظون شهبًا ناريًّا، يقدح ثمّ يخبو، خلف نظّارتيه السوداوين... وكأنّما تلك إشارة غامضة تنبئ بأنّ خلف كثافة السواد، تكمن ذُرَيْرات نور، تتجلّى في بعض الحالات النادرة:

– يا ليلي... يا ليلي... يا ليل...

ولم يكن هناك مَن يقوى على مشاركته ليله ذاك. متفرّد به، هو، مثلما يتفرّد بالقول: يستلُّه من أعماق الوعي، يزلزل به الجماعة، المنصتة بخشوع لا يلبث أن يتحوّل إلى نشوة عارمة، يحسّها من تماسٍّ مكهرِبٍ للجوّ، فيجود في القول والعطاء، ولا يعود يتوقّف...

يتجوّل بين الحاضرين، يردّد أسماءهم، ويُدرك قدراتهم... مثلما يُدرك قدرته على سحرهم:

– أوف... يا ليلي...

يميل النغم مع المزاج. يُعيد إلى الحاضر وجوهًا غابَت من زمان. غيّبها الموت أو الهجرة. والمليخي، بذاكرته الهائلة، يحفظ الأسماء وسيرة الرجال: الأبطال منهم، يعدّد بطولاتهم... والصعاليك، يسدل على ذكرهم ستارًا من الرحمة تقوى على حياكته كلماته المنغّمة...

والقصائد، مثل الموج، تنهض من أعماق قريحة متمرّسة، لا تكرّر قولًا ولا تُعيد وصفًا. وقد تعوّد الفتيان تسجيل القصائد في دفاترهم الصغيرة، يحفظونها في غياب البلبل الغرّيد. وتبقى معهم، زادًا، في مواسم القحط والغياب.

***

الرياح في الحديقة استكانَت وهدأَت بعد رحيل البلبل. ولم تعد بقيّة الطيور ترفع أصواتها. اكتفَت بالهمس، وهي تنقر الحبّ، من أكواز التين أو ثمار العنّاب. ولا تأبه الطفلة، للطيور والعصافير التي همّها الأوّل، البحث عن القوت. وهذه، حتّى إذا رحلَت، لا يلامس رفيف أجنحتها شغاف القلب، مثلما تلامسه رفّة جناح البلبل، وإن في الذاكرة والخيال...

***

القاعة الرحبة، حيث اختلط المحتفلون بالراقصين، تشعّ الانوار من كلّ زواياها، حيث علِّقَت مصابيح «الكيروزين» الفخمة، (اللوكس)... شاشاتها الفضّيّة تضاعف قوّة النور وترسله في المسافات المظلمة حول الجورة، فتبلغ الرسالة إلى الواقفين فوق شرفات القرى المجاورة. تخبرهم أنّ فرحًا يُقام هناك، وسوف يأتي دورهم حين يتابع المليخي تجواله.

***

لم تعُد الطفلة، تسمع صداح البلبل في الأيّام التالية. وظنَّت أنّه ربّما انضمّ إلى سربه، ورحل... لكنّ الذي لم تتوقّعه هو أنّ غيابه سحب النور من عينيها، وفقاقيع الفرح والألوان المالئة كيانها.

لم تعُد تنهض باكرًا في الصباح، بنشاطها المألوف، بل تظلّ، بَعد نوبة الصحو، «غارشة» تحت اللحاف، تتظاهر بأنّ سلطان الكرى لا يزال مستوليًا عليها، مغمّضًا عينيها البنفسجيّتين. وتتظاهر بأنّ النهار لم يطلع بعد، برغم «الهيصة» العابرة إليها من ثقوب الأبواب والنوافذ.

وفيما هي تتقلّب، بين الصحو والنوم، يأتيها الصدى السحريّ من مكان لا تدركه حواسها، إنّما تظلّ تتلمّسه يتغلغل عميقًا بين شغاف القلب. ويعود الحنين ينهض، فيشعل في كيانها الحماسة والأمل. وتصحو.

لكنّ صحوتها الجديدة تردّها إلى اليأس، حين تكتشف أنّ ما كانت تسمعه من أصداء، مصدره بعض أحلامها، وتوقُها اللاواعي إلى استرجاع الحبيب الغرّيد...

***

تعيش القاعة لياليها أعراسًا، على صوت المليخي، يتلو قصائده من عيون القول، منغّمة على تلك الأوزان المتوارثة، والضاربة في خلايا الجذور المتوارية... ويُترَكُ اكْتِناهُ أسرارِها لمَن ولَدَتهم أمّهاتهم تحت نجوم الشعر والنغم، يطلقونه فراشات ملوّنة، أو يوزّعونه خبز حياة.

ويظلّ الناس، في زوايا القاعة، خاشعين ينصتون... حتّى إذا ما تموَّجَت الأنغام وترنّح رأس المليخي، كأنّه يحاول انفصالًا عن جسمه، سرَت في الجماعة جيوش نمال، مثل تلك التي تبعثها نشوة سكر، أو سحر. فللنغم وللقول سحر وبهاء. وهم، في تحلّقهم حول البلبل، وخشوعهم كأنّهم في محراب عبادة، ورأس الميليخي يدور بالقول، ويترنّح على إيقاع النغم، فلا يعرف حدًّا يتوقّف عنده. ولا يعود سامعوه يبصرون قامته الجهاميّة، ولا النظّارتين المزنّرتين عينيه بصرامة...

وهو مثل البلبل، الذي كلّما سُمِلَت عيناه، ازداد صوته نقاء ورخامة...

***

لا تيأس الطفلة اليأس المطلق، إذ تعلم أنّ للطيور فصولًا تظهر في بعضها، ثمّ تختفي، والاختفاء هو ظهور في مكان آخر... وبلبلها، وإن كان الآن في غياب، هو حاضر في مكان آخر... أمّها تقول: «مَن صبَر ظَفَر». وهي صابرة، على الفراق، لأنّها تعلم حكمة الفصول وتقلّب الأيّام. وأمّها ظلّت صابرة، تغالب الشدائد حتّى تغلبها...

***

يبقى المليخي، طوال الاحتفال، ثابتًا فوق عرشه، يده اليمنى تسند رأسه، مطوّقة أذنه وأعين الجماعة تطوّقه وتلتفّ حوله، وكأنّها تتزاحم للاقتراب من المصدر الأوّل للشعر والأنغام.

وفي آخر الليل، تدخل امرأة غريبة قاعة الفرح... من دون إنذار أو إذن، تدخل... ثوبها يلامس صفحة البلاط، مرصّعًا بحجارة برّاقة، مطرّزة حواشيه بالقصب والفضّة.

تعقد حول خصرها النحيل شالًا، وتبدأ احتفالًا جديدًا...

لن يبصر المليخي جسم ميساء يتلوّى وسط القاعة، مثل أغصان البيلسان... لن تلامس نظراته شعرها الكستنائيّ المتدلّي حول كتفيها...

ميساء ترقص بالفطرة، منذ أن اختار لها أبواها ذلك الاسم. وحين بلغَتها ردّة «الأوف» و«يا ليل» وجدت نفسها مجذوبة إلى وسط القاعة بقوّة مغناطيسيّة وأخذت ترقص.

***

الطفلة لم تعُد تُبصر البلبل أو تسمع أخباره. لكنّها لن تصدّق أنّه الغياب الأبديّ. لذلك تعمَد، كلّ مساء، إلى ترك نافذتها مفتوحة، لعلّه يعود... يومًا!

***

ميساء ترقص.

ذبذبات الجسم وتشظّي حيويّته تشعل الأجواء. بعض منها يلامس وجه المليخي، وكيانه...

ويُحسّ المليخي بأنّ السراجين المطفأين، (عينيه) يغوران أعمق، ليؤكّدا أنّ السمل بات نهائيًّا. ويمضي في إطلاق أنغام جديدة، تتجاوز كلّ ما جادَت به قريحته في السابق... والمستعمون يلاحظون تحوّلًا هائلًا ومخيفًا، في جرس صوته، وفي معنى قوله الذي بات موجّهًا إلى نقطة واحدة وسط القاعة... تشدّه برغم عماه، إلى ميساء... وهكذا ظلّ ينشد، وهي ترقص، والناس يصفّقون، ومن بين أكفّهم تنطلق شرارات لا تلبث أن تندلع في القاعة وتحوّلها إلى كتلة من نار.

***

قال الناس الذين أبصروا الطفلة تنتظر على حافّة الشبّاك:

– مسكينة. انتظارها سوف يطول. فهي لا تزال طفلة، وتجهل طبع البلابل.

وقال الناس الذين فرّوا من كتلة النار، في تلك الليلة، إنّهم أبصروا بلبلًا يرتفع فوق ألسنة اللهيب، ويحلّق بعيدًا... وفي إثره، ترفّ فراشة، ترتدي ثياب راقصة...

الراقصة والبهلوان

تشدّني الطفلة من يدي بإصرار. تخبرني بتلعثم الكلمات، أنّ الجميع حضروا، فامتلأَت الساحة بحضورهم وبدأ الاحتفال.

تشدّني من يدي بعنف وإلحاح، يعرفه الأطفال حين يريدون أن ننفّذ أوامرهم.

– عجّلي... سبقونا.

تقول ويأتي صوتها من خلال الفضاء الأثيريّ، كأنّه لا يخصّ زمانًا أو مكانًا بالذات، ولا ينبع من حنجرة بشريّة محدّدة بحدود جسم ترابيّ، بل كأنّما هو صوت خرافيّ، نابع من الأثير... صوت منبثق من ذاته:

– عجّلي... سبقونا!

وأهرع خلفها.

أُجرجر ثقل كياني وبطء ساقيّ... محاولة، من خلال وجودها، استعادة تلك الرشاقة التي كانت لي في زمان مضى، حين كنتُ في مثل عمرها...

مكتبة
t.me/soramnqraa

يومذاك، كنتُ أجري مثل الرفاق بين الأزقّة، وفي عرض الساحات. أتسلّق معهم الجدران وباسقات الشجر: أشجار الحور والدلب والصفصاف.

في بعض الأحيان، تحملنا المغامرة خارج حدود «الجورة» فننطلق في الدروب الضيّقة، والتي لم تكن قد عرفَت، قبل وطء أقدامنا، سوى حوافر البغال والحمير.

كنّا ننطلق، ونتبارى، نتسابق ونسابق الرياح في هبوبها...

والآن، ها هي تعود. تمسكني بيدي. وأحسّ بأنّ ثقلي قد يعيقها ويقيّد حركتها الفتيّة... في وسعها هي أن تقفز إلى حيثما تشاء...

في وسعها أن تتحرّر من قيود الأديم الترابيّ، وتنطلق:

– عجّلي...

***

تفلت يدها الصغيرة الطريّة من يدي المعرّقة، الخشنة، المقتربة من حدود الغروب...

تفكّ يدها عن يدي وتجري، فأُحسّ بأنّ طاقة هائلة تخرج من كياني، تنضو عنّي قيود المادّة، تحرّرني... فألحق بها. أحتضنها. ثمّ لا يلبث كيانها أن يصير كياني. وتصبح هي حاضري وماضيّ، في آنٍ... وتشير بإصبعها إلى الأمام وهي تردّد بحماسة:

– هناك... هناك، هل تبصرينهم؟ الغجر. جاؤوا، ومعهم راقصة وبهلوان.

وكانوا دائمًا يجيئون.

يحضرون في المواسم، وكأنّهم من بعض النبات الفطريّ الذي يولد من «فقس» الرعد وتصادم الغيوم.

فجأة كانوا يظهرون.

ليس لهم مكان محدّد، أو رابطة تشدّهم إلى وطن بالذات.

أوطانهم مدارات الأكوان، وما يحملونه من خفيف الحاجات فوق ظهور حمير مرهقة أبدًا، تنوء بنقلهم مع أحمالهم والمتاع، بين مطارح لا تكاد ترحّب بهم وتستقبلهم، حتّى تراهم يشدّون الرِّحال!...

مثل الزيزان والحشرات، بل وبعض النبات، يميلون مع الشمس، أينما مالت، ويتوارون معها في فصول البرد، تاركين لسواهم الفراغ والصقيع وصمت المكان...

***

وأبي، الذي كان غريبًا عن «الجورة» ظلّ صديقهم.

«الريّس»، كانوا يلقّبونه، بمحبّة وفرح. ويتحوّل اللقب، على أفواه الناس في محيطنا، إلى سخرية... إذ كان أبي بعيدًا عن الطقوس المتزمّتة الصارمة، يرتديها الناس جلودًا شائكة مثل تلك التي لبعض الزحافات... وفيما كان الناس من حوله يقيمون في عبوس دائم، ووجوه كالحة، كان هو يجيد الابتسام والمرح. بينما هم يتكلّمون بجدّ وصرامة، من فوق منابرهم الذاتيّة، ويشدّون جلودهم حول أجسامهم إلى حدود التسطّح... ظلّ هو يطلق صوته بالغناء المرح، وجسمه

بالرقص الحرّ، المتوازي مع حريّة الرياح في مدى السهول! وفيما حافظ أهالي الجورة على خطّ واحد سلكه أجدادهم وآباؤهم من قبل، لا يلتفتون حولهم أو يرفعون رؤوسهم عن مستواها الترابيّ، لاختراق القبّة الزرقاء... كانت قدما أبي لا تحملانه على الطريق مرّتين: حياته كشف متواصل، للطرق العصيّة، المستحيلة، يعود منها بشتّى المفاجآت.

***

وها هو الآن واقف معهم، وسط الساحة. والناس من حوله مهرجان. لقد وصل الغجر في زيارة غير عاديّة، وعدوا بها قبل رحيلهم في نهاية الصيف الفائت:

– سنرجع، ومعنا راقصة وبهلوان.

هكذا قالوا في حينه... سمع الناس قولهم ولم يصدّقوهم... مَن يصدّق وعود الغجر؟

صحيح أنّ الناس يفرحون بهم، بعض الوقت، ويتمتّعون بالغناء والرقص، لكنّهم يظنّون بهم الظنون: «نَوَر»، يقولون لك، «إنّهم نَوَر... وفلان نوري؟»... والاسم يعني أحطّ البشر. وكيانهم يعني اللاشيء، ما دامَت لا تربطهم بمكان رابطة مألوفة وليس لهم سلطان.

هكذا هم الناس في «الجورة»، يضيقون بكلّ جديد أو مختلف عن المألوف في تقاليدهم.

***

وها إنّ «النَّوَر» عادوا، وقد وفوا بالوعد. رجعوا مع الأحمال والعيال، بالإضافة إلى الراقصة والبهلوان. وأبي، من جملة الناس، يستقبلهم في الساحة، يفرح بهم وينتظر مع المنتظرين، الحفلة الكبرى، وقد وعدوا بها الأولاد، قبل سنة: «تتفرّجون على بهلوان، يمشي ويرقص فوق الجبال»، يومها قالوا للصغار.

ولم تكن لهم ثقة بأنّ ذلك سيحدث، فعلًا. إنّما هكذا هم الكبار دائمًا، يطلقون الوعود، يُلهون بها الصغار السذّج، كي يتوقّفوا عن الصراخ والبكاء، أو المطالبة بالقريب الممكن.

وها هم الآن في الساحة. حضروا قبل أولادهم، ولم يُصدّقوا أنّ الكلام الذي طرحوه بخفّة في مسامع الصغار، يتحقّق الآن، وبعيدًا عن إرادتهم.

– الغجر هنا. وصلوا. ومعهم راقصة وبهلوان.

وقفوا يتأمّلونهم، يُنزلون الأحمال من فوق ظهور الدواب، عشرات الأيدي تتضافر، تمتد إلى الرِّحال، تُنزل المعدّات: الغرابيل مصنوعة من جلد يابس مجدول، صناعتهم العريقة، يبيعونها في محطّات نزولهم. وسلال قشّ، وسطول نحاس كثيرة (كولك يسمّي الغجر السطل)... أداة تسوّل، يطوفون بها على البيوت، يجمعون فيها الزيت والدبس مقابل الرقص، أو التبصير بالودع وقراءة حظ الصبايا والشباب:

– «بصّارة، برّاجة بتشوف البخت. تعالي أشوف بختك يا حلوة!»

وتلين الحلوة، أمام النظرات العارفة، الخبيرة. ربّما كان في عيون النساء الغجريّات بعض من سحر العرافة الموروثة منذ القدم... مَن يدري؟...

الصبيّة تشعر بانجذاب قويّ يدفعها إلى مؤانسة الغريبة، يقارب انجذاب الكواكب لدى حدوث الزلازل والهزّات الجوفيّة.

– «أشوف بختك يا حلوة!»، وتمدّ الحلوة كفّها وتصغي؛ يطغى عليها ذلك الشعور الغامر، مشوبًا بالغموض وسحر المستقبل المجهول:

«بختك راجع،
سعدك طالع،
وحبّك والع...
قولي: انشالله!»

***

مثل هبوب عاصفة، يطلّ علينا الغجر في فصل الصيف، يفجّرون الألوان والأنغام، ويغرسون الحركة والنشاط في الدروب، وفي القلوب، ويحوّلون أيّامنا إلى أعياد.

***

وكان لحضورهم تلك القدرة، على جمع الناس في الساحة، ومن كلّ الجهات، فتُنسى لبعض الوقت الحزازات الصغيرة، وتتوارى الأحقاد في الصناديق العتيقة. ويستعدّ الجميع لمهرجان النغم والحركة.

وفي تلك المرّة الفريدة، كان لزيارة الغجر طعم مختلف عن كلّ ما سبق وعرفناه... مشحون بالترقّب، وبشيء من الخوف، يرتعش في الصدور، ولا تبوح به الكلمات، وإن أفشَته العيون، يتسرّب منها، وهي تراقب إنزال الأحمال، وبينها عدّة البهلوان: أعمدة الخشب المرتفعة وعصي، وحبال. وقد عرفناه من ثيابه، (يرتديها ضيّقة ملاصقة لجلده) ومن طوله الفارع، وقامته الرشيقة.

كان فتى في قرابة العشرين من عمره، أسمر البشرة، تلك السمرة التي تميّز جماعته؛ عيناه سوداوان، تلمعان ببريق ينتشر ليضيء وجهه بنور لا تتداخل فيه ظلال.

بدا مرحًا، وخفيفًا، كنسمة صيف. وحين أخذ المبادرة لينصب الأعمدة، تسابق الرجال والأولاد لمساعدته، ومضوا يدقّون الأوتاد، يثبّتونها في الأرض، بعدما عمّقوا حفر التراب في الزوايا الأربع؛ ثمّ راحوا يمدّون بين رؤوسها حبال القنَّب، الغليظة المتينة، ويختبرون قوّتها وطاقتها على حمل الفتى، متنقّلًا عليها، بخفّة ورشاقة.

***

«وأعمدة المشانق كانت ترفع في الساحة، تتدلّى منها حبال قنّب ثابتة، قويّة، تعلّق بها رقاب اللصوص والمجرمين».

تسجّل الذاكرة الجماعيّة ذلك، وهي تستعدّ للمهرجان. العمود نفسه، والحبال، يمكن أن تكون عبّارة إلى الفرح، أو الموت. وتبقى حياديّة لا مبالية.

***

انتظروا حتّى اكتمل العدد؛ بعودة الفلّاحين من حقول القمح وكروم العنب، وخرجَت الصبيّة فارعة القوام تبتسم. وتبدو أسنانها من خلف شفتيها المطليّتين بلون الإثمد العتيق، صفّين من لؤلؤ خالص. والشعر مسترسل، أشقر محمرّ قليلًا بتأثير الشمس والحناء. «شقرة النَّوَر» يسمّونها في الجورة، تنسكب فوق بشرة سمراء حادقة. حول خصرها شال حرير بألوان قوس قزح، يتهدّل على ثوب فضفاض مثنّى، وتبدو من تحته أطراف ساقَيها مزيّنة بالخلاخيل ذات الأجراس، فوق قدمين حافيتين جريئتين. والعنق متراجع قليلًا، يفسح المجال لحريّة الصدر اللاهث حرارة وفتوة. فوقه ترتاح عقود خرز ملوّن وصدف، تطوق العنق، وتتبارى مع الأقراط متدلّية من شحمتي الأذنين، ترافق حركة الرأس والمزاج، في اهتزاز الأهواء، وتقلّب المزاج. والسواعد تتزاحم فوقها «الغوايش» والدمالج والأساور، من عظم أو من خرز ملوّن، بعضه أزرق، لردّ الأعين الشرّيرة، يحسب حسابها في كلّ الأحوال.

وتُحيط بالرأس عصابة ازدانَت بكلّ ما يلمع ويبرق بالألوان، تتغاوى قليلًا فوق الجبين، تسجّل مسحة إغراء مطلوبة لاكتمال مهرجان الجسد، يتوارى خلف ثنايا القماش الفضفاض.

***

أتراها ازدانَت لطقوس الرقص ومفاهيمه، الغجريّة الحسناء، أم لأنّ بينها وبين ذلك البهلوان عهدًا؟

أتساءل الآن، وأنا أتذكّر المشهد مكتملًا، محفورًا في الذاكرة، يتجدّد مع مرور الأيّام وتزداد ألوانه إشراقًا وبهاء!...

***

بدأ الاحتفال:

طبول تقرع، ترسل دويّها تميد به الأرض وتترجّع الأصداء في أعماق الوادي المجاور... نافخ الناي يختلس لحظات عبور، يطلق من خلالها آهات جريحة... والطبلة الصغيرة (الدربكّة) قصيرة النّفَس والقدّ، مزاولة أداءها، محتفظة لنفسها بنصيب من الحضور...

وظلّ البهلوان متواريًا، يزيدنا غيابه شوقًا إلى إطلالته ووعوده. ومثله لراقصة، بقيَت إلى حين محجوبة عن الأنظار وراء خيمة شَعْرٍ منصوبة في ركن الساحة...

كانت أصداء الطبل والزمر تحفظ الإيقاع، ترسل الإشارات، لغة تتداخل في خلايا الجسم. ثمّ راحَت تتصاعد، وتتفجّر من خلال ذرّات

الأثير. وفيما الناس في تساؤل الذهول لهذا التحوّل المفاجئ، انطلق البهلوان كالسهم الرشيق، في لباس ملاصق لجسمه الفارِه، حاملًا عصا كالرمح، لا بدّ منها في طقوس الأداء...

مثل أفعى، تسلّق العمود من أقرب الجهات، إلى أن بلغ طرف الحبل. وشدّ قامته بهدوء لتنتصب في الهواء، معتمدة على قدمين مرتاحتين الآن فوق الحبل، وقد رفع بين يديه العصا، ميزانه، به يَزِين نقلاته بدقّة محسوبة.

***

لحظات الشهقة الأخيرة، أم أنّه الهواء يتجمّد في فضاء الساحة؟... ظلّ الصمت مخيّمًا، والهدوء مستوليًا على الجماعة، فيما «طائر الدوري» الرشيق ينقل خطواته المدروسة، تتلاعب بين يديه عصاه، تميل تارة إلى اليمين، وطورًا إلى اليسار، ومعها تميل القلوب واجفة خائفة. ويرتفع الدعاء من العيون قبل الحناجر: «الله يحرسك ويحميك»، وكأنّما تلك اللحظات تمحو المسافات والأزمنة، وترميه في الحضور، مولودًا جديدًا يمحو بنقلات خطاه المتّئدة عناصر الفرقة والتمييز...

ويظلّ مشدودًا بسحر التحدّي، والخطر يطوّقه، ويدفعه إلى استنفار أقصى طاقاته المدرّبة، المنضبطة. ويكاد، لفرط الرشاقة، أن يتابع سيره فوق حبال غير مرئيّة، تبصرها عيناه وحدهما في ذروة التحدّي والحماسة، وتصفيق الجمهور...

***

قبل بلوغه الحبل الأخير، عادَت الموسيقى إلى تصعيد أنغامها، قويّة، منبّهة، لافتة إلى أنّ حدثًا جديدًا على وشك البزوغ. وفيما العيون في ترقّب وذهول، بزغَت الراقصة من خلف خبائها، متجلّية بزينتها وأزيائها، وشقّت طريقها في الزحام إلى وسط الساحة، حيث بدأَت ترقص، وضارب الطبل مقابلها، يلفّ حولها ويدور، وكأنّما الأنغام خيوط سحر تجذبها، وتصلها بالأرض والهواء في آنٍ معًا.

وبينما تنتقل قدماها فوق صفحة التراب، تبدو هي للأنظار تطوّق كيانها كأنّما سلَخَت من الفضاء مساحة لها وحدها، تحلّق فيها، محمولة فوق أجنحة النغم، وتوقُها إلى إبلاغ الرسالة مَن تشاء وتشتهي في لحظتها تلك. وتمعن هي في تلك المباراة. وتحدّي البهلوان، يأسرها ويفكّ أسرها. يرفعها، أو يهبط بها إلى سحيق الوجدان وأعماق الكيان البشري. بها يحسّ نفسه قويًّا، متجاوزًا ضعفه وارتهانه.

ويصبح وجودها تحدّيًا جديدًا للبهلوان يخشى أن تزلّ به الخواطر. وهو في الجولة الأخيرة من مواجهة الخطر المهدّد، تبزغ له من خبائها، مذكّرة بطغيان الأنوثة، تدفع الذكر إلى اجتراح المستحيل، ومواجهة الموت بالابتسام الشجاع... مثال عنترة بن شدّاد في البال... وهي تميل في رقصها إلى اجتذابه خشية أن تفقده، يفلت منها، ويتزحلق فوق حبال سحريّة لا تبلغها هي المتواصلة في خطاها مع الصفحة الترابيّة.

وحده ضارب الطبل يعرف أسرار اللعبة والكرّ والفرّ، بين جسم يحاول الانضباط إلى أقصى حدوده لكي يسيطر ويتغلّب... وآخر ينزع إلى التفلّت من كلّ رابط يجذبه إليه أو يقيّده، لكي يبلغ شهقة النشوة التي لا يكاد يعرفها حتّى تكون هي سبب موته...

وتبدو الطفلة وسط الجماعة ذاهلة... من حولها أهلها والرفاق، الجيران والأقارب وكلّ الوجوه المألوفة... لكنّها في غمرة حماستها لا تعود تبصر إلّاه، يشدّها برموش عينيها، وهو يمتطي حبلًا بدا لنظرها مصنوعًا من نور أو من بلّور. حتّى إذا مال بها النظر قليلًا، تتصدّى لها الراقصة كيانًا غريبًا لن تعرف مثيلًا له أو تبصر له شبيهًا في من ستتعرّف وترى في مستقبل أيّامها، لأنّ ذلك الجسم في تحوّلاته، ومن بعض أطواره، اختراق الحدود المنظورة، والارتقاء إلى حيث بزوغ النظر، ويصبح عاجزًا عن الرؤية... وإلى حيث ينقل البهلوان خطوته الأخيرة، تلك التي لها القدرة على أن تعتقه نهائيًّا من أسر التراب.

تقف الطفلة الآن في الساحة، وقد انفرط عقد اللقاء، وهدأت الموسيقى، واستكانَت الرياح العاصفة وأصداء النغم. سُحبَت الأعمدة، وطُوِيَت الحبال المنشورة والأعلام، واقتُلعَت الخيام.

رحل الغجر. ومعهم رحل مرح الصيف وتشظّي الأنغام. وأقفر المكان... لكنّ الساحة باقية. تستقبل وتودّع المقيمين في الجورة، والوافدين الغرباء. وباقية، حافظةً للذكريات.

***

تعود الطفلة من جديد، وتشدّني من يدي، وهي تشير بصمت إلى نقطة بعيدة عند الأفق. وأفهم من إشارة إصبعها أنّهم هناك يُقيمون. ويبقون وعدًا يحجبه الأفق، وأملًا يعيش في البال...

سوق الخان

تتقدّم بوجل، حذرة!

المكان خطر، هنا يقيم الجنود بقبّعاتهم الزرقاء... جنود الأمم المتّحدة. نصبوا خيامهم وأقاموا أشهرًا... الآن صارت سنوات!

تتقدّم بحذر. تخشى أن ينفجر لغم. قد تكون الأرض ملغومة هنا، في هذه البقعة من الجنوب. هذه الأرض العصيّة، المستحيلة.

تتقدّم، مشتاقة، يدفعها إلى هذه الزيارة ذلك الشوق العارم، ينهض من الماضي... ماضيها، ومن سنوات الطفولة، والأحلام...

إنّها قادمة في سبيل البحث عن تلك الطفلة:

تركتُها هنا... تتذكّر ذلك جيّدًا، كانت تمسك بيدها، ثمّ أفلتَت منها وتاهَت... تذكر، حتّى الساعة، الرعب الذي انتابها في حينه. رعب جارف، مثل الذي تثيره الزلازل والكوارث الطبيعيّة، لا سبيل إلى مقاومته...

وحين وجدتها، في طرف السوق، اقتربَت منها وشدّتها من أذنها:

– لا تعيديها مرّة ثانية.

ارتفعَت إليها عينا الطفلة مبتهلتين، مذعورتين، حزينتين؛ وسألَت:

– أُعيد ماذا؟

– التَّيَهان... لن أسمح لك، بعد اليوم بأن تفلتي من يدي.

ارتعشَت شفتا الصغيرة، و«شفتَرت»، مثلما يفعل الأطفال حين يهمّون بالبكاء. لكنّها لم تَبكِ. كانت في ذلك المزاج الخرافيّ الذي ينقل الصغار بعيدًا عن الواقع، عن أهلهم وعن زمانهم والمكان، فيحملهم على جناح طائر أسطوريّ ويرحل بهم.

***

وهي الآن، قادمة، من غياب سنين، لتبحث عن تلك الطفلة من جديد. وعليها أن تتجاوز خط القبّعات الزرقاء، رجال الأمم المتّحدة، قوّات الطوارئ الدوليّة... المنتدبين لحفظ الأمن والسلام في وطنها.

تتقدّم. ويقترب منها الجنديّ الأشقر الوسيم، منتصبًا مثل رمح. يستنفر سلاحه، ويقترب من بوّابة الحراسة. يعتريها الخوف، لبعض الوقت. خوف غريزيّ لديها من كلّ ما هو سلاح... لكنّها لا تتراجع.

هي واثقة بأنّ الجنديّ سوف يعرفها، حالما يبصرها ويتمعّن في وجهها. فهي تحضر إلى السوق، مرّة في كلّ أسبوع. نهار الثلاثاء بالضبط... ودائمًا في الأحلام.

– نعم، سيّدتي!

يخاطبها بالإنكليزيّة، وتسأله:

– هل تسمح لي بالدخول؟

لم يكن طلب الإذن واردًا في حسابها، لكنّها، في مثل هذه الحالة، تقبله وتتقبّل الجواب الذي جاءها سؤالًا:

– إلى أين؟ أين تقصدين؟

– السوق. هنا، خلفك، سوق الخان؛ هذا البساط الهادئ، ملء العين.

– وماذا تنوين أن تفعلي هنا؟ ترين، ليس هناك أيّ شيء، لا بشر ولا حيوان... فقط قوّاتنا. جنود حفظ السلام...

تأمّلَت وجهه لحظة، مستنفرة قدرتها على الفراسة، وهي في بعض الأحيان، تستجيب لها وتساعدها في فهم الناس وتحديد انتماءاتهم...

لكن هذا الغريب، لا تجمعها به خلفيّات ولا ذكريات، لا من مرحلة الطفولة ولا الشباب.

وجهه غريب عنها، وعن المكان وتكاد تقول: الزمان. وتبقى عاجزة عن تجاوز القناع الخارجيّ، فيسقط عنها علم الفراسة...

ماذا تقول له؟ وبماذا تجيب عن أسئلته؟

أتخبره أنّها قادمة للبحث عن الطفلة؟... وإذا فعلَت، أوَلَن يحسبها مجنونة، أو يتّهمها بالتخريب؟... وهل في وسعها أن تشرح له غاية زيارتها، وسعيها إلى هذا المكان؟ وبأيّة لغة تفهمه؟...

كيف يفهم لغتها؟

وظلَّت واقفة، وحدها، وهو يتأمّلها، وقد لفّه شعور القلق والشكّ، إذ ليس من عادة النساء أن يَزُرنَ هذا المكان. ولا حتّى الرجال.

تدرك، بجزء من وعيها معنى أن تكون في منطقة عسكريّة تشرف عليها قوّات الطوارئ.

مساحة من وطنها، متّفق على إبقائها خارج خطوط النزاع، والعدوان (إلّا في حالات الإصابة العشوائيّة). لكنّها الآن جاءت، متجاوزة كلّ الاتّفاقات الحربيّة والسياسيّة، وتريد أن تخترق هذا الخطّ الوهميّ للقوّات الدوليّة، لتدخل السوق... سوق الخان.

***

– لماذا؟

الصوت يسأل. ويُخيّل إليها أنّه صوت الجنديّ أمامها. لكنّها أحسَّته راجعًا من مسافات بعيدة، ليتساقط من الجوّ، ويرسو حولها، من كلّ الجهات:

– لماذا؟

– لأبحث عن الطفلة.

تعرف غايتها. ولن تحيد.

قطَّب الجنديّ حاجبيه وكأنّما أدرك، بوحي ما، أنّها ليست في حالة طبيعيّة. فهي إمّا مجنونة، أو مخرّبة. وفي كلا الحالين، عليه أن يستدعي مَن هو أعلى منه، ليشاركه المسؤوليّة:

– انتظري، لحظة، من فضلك. سأدعو الضابط. ليس من صلاحيّتي أنا أن أسمح لك بالدخول...

وانتظرَت ريثما عاد الجنديّ برفقة ضابط، يبدو أكبر منه ببضع سنوات، ومثله هادئ الأسارير، يرتدي قناع القوّات الدوليّة المطمئنة.

دائمًا، هي مطمئنة، حتّى ولو خرب الكون من حولها. فهي قوّات الطمأَنة، وحفظ السلام!

– أيّة طفلة، سيّدتي؟

يبادرها الضابط، بجدّ لا يلبث أن يتحوّل إلى غضب:

– هل تفهمين معنى كلامك؟ ما هي قصّة الطفلة هذه؟

– فقدتها.

ردّت باختصار، ومن دون تلعثم أو تردّد.

ثمّ تابعَت:

– كانت ترافقني، أيّام زمان. ولكنّي فقدتها. وعدتُ الآن لأبحث عنها.

التفتَ الضابط إلى رفيقه، وخاطبه بلغة لم تفهمها، وقد تكون دانماركيّة، أو سويديّة أو هولنديّة. لكنّها ليست من بين اللغات التي تعرفها على أيّ حال. وقد أمكنها أن تفهم اللهجة، وقدّرَت أنّ الضابط ينعتها بالاختلال... لكنّه، عندما عاد يوجّه إليها خطابه، تعمّد أنّ يبقى مهذّبًا، هادئ الأعصاب:

– لا نفهم معنى كلامك، سيّدتي، لكنّ الدخول إلى السوق محظور. وهذه هي حدود معلوماتي.

– لكنّي أبحث عن الطفلة... وعليّ أن أجدها... الطفلة... الطفلة...

***

كلماتها تطنّ في الفضاء من حولها. ويتّسع الصدى، وتـزداد رقعة انتشاره. ويتحوّل إلى أجنحة أسطوريّة، تنقلها بعيدًا عن نقطة العبور، وتعيدها هي، طفلة.

وكانت الطفلة تحبّ النوم حتّى الضحى. لغفوة الفجر عذوبة خاصّة. لكنّهم يوقظونها دائمًا في البكور، لتخرج مع العائلة إلى الحقول.

وعندما أيقظتها أمّها في تلك الدغشة لم تتضايق، أو تحتجّ، أو تفرك عينيها، أو تتثاءب، مثلما تفعل كلّ يـوم... فقد غفَت الليلة الماضية على حلم جميل، أبوها سيأخذها إلى سوق الخان. يعني أنّه يختارها لمغامرة لم تعرف مثلها من قبل، وقد تبدّل مجرى حياتها الرتيبة الباهتة.

انسلَّت من فراشها بهدوء، حتّى لا توقظ الصغار، إخوتها. وكانوا ينامون حولها «شك بصل»، تقول جدّتها، رؤوسهم متوازية وأجسامهم الصغيرة ممدّدة على راحتها.

سحبَت جسمها النحيل من بينهم يساورها شعور خُيلاء مفاجئة: كبرَت فجأة. وهي الآن تشعر بأهمّيتها ومعنى اختيارها، وحدها، لتلك الرحلة الموعودة.

غسَلَت وجهها بحفنة ماء بارد، ثمّ استسلمَت ليدي أمّها، تُلبسانها فستانها الجديد، الذي تحتفظ به لأيّام الآحاد والأعياد. وبخضوع،

حنَت رأسها للمشط، تسرّح به الأمّ خصلات الشعر الكستنائيّ الأملس، مثل سنابل القمح في مواسم الحصاد:

– ما بدّي وصّيكِ، يا بنتي، كوني عاقلة، واسمعي كلمة أبيكِ.

قالت الأمّ، وهي تغمرها، مودّعة. فطأطأَت هي رأسها مطيعة... في وسعها الآن أن تكون خاضعة، وإلى أبعد حدّ. ويمكنهم أن يُكلّفوها أيّ عمل، فتقوم به بفرح وبلا احتجاج... إنّها في ذروة سعادة لم تذق طعمها، حتّى في الحلم.

***

حين خرجَت إلى ساحة الدار، كان أبوها قد حزم الرّحل فوق ظهر «الغبراء» ووضع فوقه الخرج، فارغًا، كي يملأه بالبضائع من السوق. ثمّ رفعها بين ذراعيه وجعلها فوق ظهر الدابّة، وقفز ليستوي خلفها، ثمّ يغمرها بذراعيه، قبل أن يتسلّم رسن الدابّة، وكان متدلّيًا حول عنقها، ثمّ ينهرها بالعبارة التي تألفها وتفهمها:

– حا... دي... دي...

على مدى الرحلة، وقد استغرقَت وقتًا طويلًا (اليوم يمكنها أن تقدّره بثلاث ساعات)... على مدى ساعات الانتظار تلك، كانت ذراعا أبيها تغمرانها، وهي مسندة ظهرها إلى صدره، محاطة بحرارة أنفاسه ودفء حضوره.

بعد تلك الرحلة، لا تذكر أنّها اقتربَت مرّة ثانية، من أبيها، أو غمرها شعور الحبّ الذي أسعدها في تلك الصبيحة.

***

كانت الطريق موحشة، وحده وَقعُ حوافر الغبراء يخض السكينة، وغبراء تعرف الطريق، بلا نهر أو توجيه... طريق نبع الحاصباني، باتجاه سوق الخان.

لم يكن الفجر قد طلع بعد. تذكر الجوّ، من حولهما، رماديًّا، مغلّفًا بضباب الصباح المندّى، والذي يقول أبوها «إنّه النداوة التي تُنضج العنب والتين في كرومهم»... وكان الوقت صيفًا، ربّما منتصف شهر تمّوز، لكن برودة الليل ظلّت ترافقهما إلى أن حمِيَت الشمس. والهدوء الجاثم بينها وبين أبيها، لم يلبث أن راح يرتعش قليلًا، ثمّ تلاشى، عندما أطلق الأب حنجرته بالغناء:

– يا ميجانا... يا ميجانا... يا ميجانا... كلّ العيون عيون، وانتو عيوننا.

***

كانت مُعوَّدة سماع غناء أبيها: لم يكن له صوت مُميّز، إنّما يعرف أصول الغناء البلديّ، وقد حفظ ألحان «أبو الزلف»، «الميجانا» و«العتابا»... والكلمات المرافقة، ترشح عذوبة وعاطفة. وقد تحدَّرَت

إليه، سماعًا، ينقلها جيل عن جيل، حتّى كأنّما هي قطرات سائلة في عروقه، لاصقة بمسامّ جسمه، ورثها، مثلما ورث لون بشرته وعينيه:

– وهيهات يا بو الزلف!...

***

كانت النغمات تنسكب في سمعها، وتغور حتّى أعماق الوجدان، فتثير في صدرها، شتّى المشاعر، وأحيانًا تُسيل دموعها.

لا تفهم لماذا تبكي عند سماع تلك الأنغام العذبة، وقد تشرَّبتها حواسها جميعًا، منذ أيّام الطفولة الأولى. ولماذا، تثير حزنها، بدل الفرح؟ أَلأنّها ناهضة من أعماق ذلك المكان الأوّل، المهجور؟...

أحسَّ والدها بقطرة ماء دافئ تسقط على طرف يده. فسألها:

– تبكين؟... مالِك؟...

– لا... لا شيء. لا أبكي.

وخشيَت أن تتلمَّس أنامل الوالد جفنيها، وتُكذّبها لكنّه ظلّ بعيدًا، غارقًا في دنيا النغم والألحان الأليفة، يسترجعها يؤنس بها وحشة الطريق، ويستمدّ قوّة وشجاعة.

ألحان الغناء البلديّ...

***

لا تذكر الآن لحظة وصولها إلى السوق. وهل كانت غافية؟... ربّما غفَت لحظات قبيل الوصول. لكنّها، أخيرًا، وصلَت.

ترجّل أبوها، وأنزلها عن ظهر الدابّة ثمّ بسط يده، في تلك الدعوة المرحة، وكأنّما يدعوها إلى وليمة:

– هذا سوق الخان...

فركّت عينيها، غير مصدّقة: إنّها لا تزال في حلم... ثمّ فتحتهما، لترى المشهد الذي انطبع، مثل ختم الزمن، في ذاكرتها: المدى المنبسط، تزيّن وسطه بعض الأشجار، وقد صُفَّت حولها «أكشاك»، بُنِيَت على عجل، من طوب وطين، تغلّفها أغصان الحور والدلس والصفصاف (من حوض الحاصباني) أو ترتفع فوق سقوفها، خيامًا محكَمة، تردّ وهج الحرّ ونفح البرد في أيّام الشتاء.

ولكلّ «كشك» صاحبه، يتولّى فيه البيع والشراء، وعرض البضائع، من أقمشة وأحذية وجوارب، إلى قطنيّات منوّعة؛ وكلّها من دكاكين حاصبيّا. وفي زوايا مجاورة، تُعرض أصناف المؤونة، من برغل وكشك وعدس وحمّص وذرة وفول. ثمّ السكّر والرز والزيت والزيتون، وكلّ أصناف الخضار والفواكه، التي تجمّل المكان، بألوانها الزاهية.

سوق بكامله، يُنقل ليوم واحد، بل لبضع ساعات، ومن كلّ القرى المحيطة... وفي الخلفيّة سوق آخر، للماشية: الغنم، البقر والحمير... تطلق أنغامها، وكأنّما انتقلَت إليها عدوى المرح المنتشر في الجوّ! وكلّما هبَّت النسمات نقلَت معها، من تلك الجهة، رائحة لها عطرها

الخاص بالماشية المعافاة. وهي تغلب على ما يعرضه العطّارون، في «أكشاكهم»، من بهارات وأفاويه وزيوت العطر والغار...

***

توزَّع الناس، وسط الهرج والصخب المتصاعد من كلّ الزوايا، لينعقد فوق الرؤوس ويُذكّر بنكهة الأعياد. وبدا الرجال، في ثيابهم البلديّة: القمصان الخفيفة، ومن تحتها الشراويل السوداء الفضفاضة، أو «الطقم السفرلي» الكاكيّ؛ تُغطّي رؤوسهم كوفيّات وعُقُل، هي أفضل رداء يردّ الحرّ ووهج الشمس، ويفسح المجال للهواء، ليداعب الصدر والعنق. أمّا النساء، فكنّ يرتدين الفساتين الزاهية الفضفاضة، وقد عُقِدَت فوق رؤوسهنّ المناديل، مخرّمة، مفوّفة بفنون التطريز اليدويّ (تخرج من الصناديق، في المناسبات)، وقد أحاط ببعضهنّ الأولاد، في ثياب جديدة وأحذية متينة...

تلك هي المناسبة التي ينتظرها الناس مرّة في الأسبوع، فيحضرون للبيع والشراء، وتبادل السلع، تمامًا مثلما فعل أسلافهم ومنذ ألوف السنين.

أمّا السوق، فهو فسحة منبسطة تنحدر بهدوء، من سفح تلّة عريضة وصلبة تشكّل خلفيّة صامدة، إلى مسرح الحركة والنشاط...

كانت هي تتابع المشاهد وتحوّلاتها، ملتصقة بأبيها، تتمسّك بأصابعه وتحتمي به من عالم يهجم عليها بكلّ غرائبه وعجائبه.

– مبسوطة، يا منى؟...

يسألها صوت أبيها، فتهزّ رأسها، غير قادرة على التعبير بالكلام. «مبسوطة» كلمة ضئيلة، وغير معبّرة عن تلك البهجة النورانيّة التي تتوهّج في عينيها، وتملأ أحاسيسها، وتدفعها لتسير بقربه، قفزًا كالأرانب، فلا يعود الحذاء الضيّق (وكانت تشكو ضيقه لوالدتها) يلمس كاحلها، ويُقرّح عقبها، ويُسربل حركتها.

بدا ذلك أمرًا ثانويًّا، مؤجّلًا وهي تقفز كالأرنب بجوار أبيها، أو تحاول الطيران، مثلما يطير الفراش ويحوم فوق المطارح، ليتعرّف إلى أحوالها.

كانت سعيدة بأبيها، يستوقفه الناس، يُسلّمون عليه ويسألونه عن أحوال العائلة والشغل والموسم. وتصغي إلى تحوّل النغم، في حديث أبيها، ينبثق عفويًّا، مرحًا، وربّما مستمدًّا من انبساط السهل أو انفتاح أبواب المغامرة.

وتلتقط حواسُّها ذرّاتِ المرح المنتشرة في الجوّ، وتحفظها زادًا لأيّام الجفاف.

***

قال أبوها:

– ما رأيك بقرن بوظة، يا منى؟...

ومن دون أن ينتظر جوابها، قادها إلى «كشك»، في نقطة تتوسّط السوق، تحت شجرة زنزلَخت معافاة.

– قرن بوظة، يا عاصي، لبنتي، منى...

– تكرم عينك، وعينها... كيفك يا عمّو؟

سألها الرجل بلطف، وهو يناولها قرن البوظة بالحليب. ثمّ، ومن دون أن يضيع دقيقة من وقته، أطلق نداءه المرح:

بالحليب يا بوظة...

قرّب يا مشوّب...

يا عطشان طفّي نارك...

بوظة بالحليـ... يـ... ب.

شجرة الزنزلَخت تُرخي ظلّها، وهي تسمع هسهسة الأوراق، يتلاعب بها نسيم خفيف؛ وأبوها في جوارها، يملأها اعتزازًا ورضى، وصخب الأصوات والنداءات يتشابك فوق الرؤوس، و«يتوارب» من حولها، فيشكّل التشابك نغمًا خاصًّا بالمكان... وكانت هي تلعق الأبيض الدسم المطعّم بالمسك، وتقضم «البسكوت» الهشّ اللذيذ. ولا تطلب شيئًا، سوى أن تبقى في تلك النعمة وذلك الهناء...

لكنّ مزيدًا من المفاجآت بانتظارها وصوت أبيها يتابع دعواته:

– يا الله اشتري لك إسوارة.

وتسبقها نظراتها إلى جدار عُلّقَت عليه اصناف منوّعة من الحلى: أساور، عقود، دمالج، خواتم وأقراط... مصنوعة من خرز ملوّن، أو من صدف.

اشترى لها دملجين من زجاج أزرق وأخضر، لبستهما بفخر، وهي تشعر بأنّ زندها يكاد ينفصل عن جسمها، ليكوّن عالمًا مزخرفًا، محلّى: عالم البنات.

وكانت تحسب هذا «العالم»، ذروة البدائع، حين جاءتها دعوة جديدة، لتزور ركن الحلويّات الخاصّة بسوق الخان: النمّورة، المعلّل والسمسميّة والبندقيّة... اشترى لها الوالد قطعة من كلّ صنف، وعلبة مشكّلة حملتها، في طريق العودة، هديّة لأمّها وإخوتها، إضافة إلى ألعاب وحلى صُنِعَت من السكّر الملوّن بألوان قوس قزح.

ذلك كلّه، سوف تحمله إليهم، مع نسمات عالم جديد، تعود منه، بالحكايات الطريفة؛ ولكلّ يوم حكاية، من تلك المسجّلة في تلافيف وعيها.

***

ولم يعد الزقاق، أمام بوّابة الدار، المكان الضيّق، ولم تعد الساحة تلك الفسحة المتربّة، المرصوفة بالحجارة، بل تحوَّلَت كلّها، على إيقاع الحكاية، إلى مناطق الغرابة والدهشة.

وفي بعض الأحيان، كانت النسائم، تتوقّف فوق المكان، وتمدّ لها حبالًا، تُعلّق عليها الفائض من تلك الحكايات.

***

وها قد عادَت الآن إلى المكان وقد فرغ من الناس والبضائع والحيوانات. وتفصله عنها، وعن الكون، نقطة حدّدتها قوّات الطوارئ والاتفاقات الدوليّة.

ويبقى همّها، أن تحصل على «إذن مرور» إلى حيث فقدَت الطفلة من زمان... من زمان...

صندوق الفرجة

كان يأتي من خلف التلال الشرقيّة.

هكذا أُحبُّ أن أتصوّره. وهكذا هو مرسوم في الذاكرة، مع أنّي (بعدما كبرتُ، وصرتُ أفهم الجهات، وأُحـدّد مواقعها في الشرق والغرب والجنوب والشمال، وما بين جهة وأخرى) أدركـتُ أنّـه لم يكن ممكنًا لـ«رهوان» أن يجيء من الشرق، إذ كان المنظر الشرقيّ لجورة السنديان تلالًا مرتفعة، متواصلة، متماسكة، مستندة إلى صدر حرمون، مثلما تستند حبيبة مغناج إلى صدر حبيبها. وليست هناك طريق واحدة يمكن أن يسلكها المشاة، وخصوصًا حين تكون ظهورهم محمّلة بالأثقال.

لكنّه ظلّ يجيء من الشرق، في زمن الطفولة السعيد جدًّا (لأنّه الآن بعيد، وقابع في أمان الماضي، حيث تجرف الأيّام غبار الأحداث. وترصفها. وكلّما تزاحمَت، راحَـت تشعّ ببريق هو ليس في الأصل، بريقها، بل ذاك الذي تشاء الذاكرة أن تضيفه على الأحداث، الناس والأماكن)... ظلّ «رهوان» يأتي من الشرق.

كنّا نتأمّله، نحن الأولاد الصغار، الأشقياء. نركض حفاةً، بين الأزقّة: «يا ولد، إشلح صبّاطك قبلما يهتري... يا الله... أركض! وإنتِ يا بنت الحفا عافية»...

حفاة كنّا نُرَهوِن سعداء، إذ كانت أقدامنا تلامس صفحة الأرض، أرضنا، فتلمس الدفء والحنان، ويغمرها دفق من المحبّة والأمان.

وكنّا نجري، ولا نتعب. يتعب نهارنا منّا، وتغرب شمسه عنّا، وترحل الحكايات، ولا نتعب... في ذلك الزمان البعيد جدًّا في جورة السنديان.

***

أَتَذَكَّرُهُ الآن: رهوان.

قوامه ممشوق، مائل إلى النحول، ولم تكن بنيته قويّة؛ كنّا نلاحظ ذلك من تسكّع قدميه وساقيه، وهو يسير، حانِيَ الظهر تحت ذلك الصندوق الأسود الداكن، تعلو سطحه وجوانبه، طبقات من الشحم والغبار. لكن تلك هي ألوان الخارج، فحسب. إذ إنّه، لا يكاد يفتح ذلك الصندوق العجائبيّ، حتّى ننسى كلّ ما في الخارج من مشاهد. وأحيانًا ننسى رهوان، بسرواله المرقّع، وزنّاره الداكن يلفّه حول الخصر، ولبّادته الكثيفة يلبسها، صيفًا وشتاءً، فترُدّ عنه الحرّ والقرّ. ومن تحتها يبدو وجهه مسنونًا بحدّة أيّامه الصعبة، الوجه مثلّم، مقلّم بخطوط زمانه، وقد ارتفع بين الثلم وجاره حرف حادّ، يعلوه الشعر، غير مُتساوٍ في نموه وطوله، لأنّه، (كما أظنّ الآن، من هذه المسافة الزمنيّة) كان يخضع

للحلاقة السريعة، وربّما بشفرات مستعملة مرّات عدّة، إذ إنّ رهوان، لم يكن من أهل «الجورة»، بل من مزرعة الخان المجاورة. وأهلها، في حينه، لم يكونوا قد عرفوا الهجرة والسفر، وهم لم يغامروا أبعد من حدودهم الضيّقة، ولبثوا في السهل، يفلحونه ويغرسون فيه القمح والـ«قطاني»... لذلك، لم يصلوا إلى أميركا، ولم يتعرّفوا إلى المبتكرات الحديثة، مثل شفرات الحلاقة، الساعات وعلب الدخّان المعطّر، يرسلها الأبناء والبنات المغتربون، هدايا إلى الأهل والأحبّاء المقيمين في الجورة؛ (وأغلب الظنّ، أنّ رهوان، كان يتلقّى تلك الشفرات هبات مجانيّة، من بعض الأمّهات أو الجدّات الحريصات جدًّا، وهنّ لا يفرّطنَ بالشيء إلّا بعد أن يكون قد استُهلِك نهائيًّا)...

***

لكنّ الرجل، شكله، لباسه وقيافته... ذلك كلّه، لا يلبث أن يتوارى ويُنسى، حين ينزل رهوان الصندوق وسط الساحة. ويقف قليلًا، كي ينفض كتفيه، ويرتاح. ثمّ يأخذ نفسًا عميقًا، ويُطلق نداءه المألوف:

– شوف تفرّج يا سلام!...

***

يا سلام، على أيّام رهوان! ويا ألف سلام على تلك الطفلة حين تسمع نداءه!... لا تعود الأرض تسعها، ولا تحوشها الساحة على رحبها.

تجري إلى أمّها. تقف أمامها، متهيّبة قليلًا. ترتعش، تفكّر في الأسلوب الأفضل، لإعلان النبأ العظيم:

– جاء صندوق الدنيا...

وأمّها تكون، مثلها دائمًا، منهمكة في مشاغلها المنزليّة والعائليّة المسلسلة والتي تصل ليلها بالنهار: طبخ، غسل، تنظيف، شطف ورعاية الصغار...

لكنّ «الصندوق» قضيّة طارئة، ضاغطة وقويّة. تطالب الطفلة بإلحاح، وتمدّها بجرأة تثير في صدرها أحاسيس تظلّ غافية، ما دامَت قابعة في نطاق حياتها «الكابية»، المحدودة بحدود البيت، ومساعدة الوالدة في خدمة الإخوة الصغار، وشراء الحاجات من الدكّان القريب.

وها هي الآن، واقفة في مواجهة أمّها. شفتها السفلى ترتعش قليلًا ثمّ تسمع نفسها تتأتئ:

– آء... آء... أعطيني... قرشين.

كانت القروش شحيحة في العائلة الكبيرة، والتي لم يكن لها دخل مقدّر، بل تعتمد على عطاء الأرض وبركة الساهرين عليها.

– أعطيني قرشين.

– واحد بيكفي...

تردّ أمّها ثمّ تضيف:

– قرش واحد لك، وقرش لنبيل.

توافق. فهي تحبّ نبيل، أخاها الأصغر منها بعامين، وتشركه في أفراح قلبها. أحيانًا تقدّمه على نفسها.

أمّا الآن، فهي ليست مؤكِّدةً رضاها بتلك التضحية، إذ إنّ القرش الواحد لا يغطّي تلك المشاهد التي تحلم برؤيتها جميعًا... وقد حدّدها رهوان بدرجات: نصف قرش لكلّ مشهد. يعني أنّها تتمكّن من رؤية مشهدين فقط، بالقرش المثقوب.

نعم، كانت القروش فضّيّة، ومثقوبة في الوسط. وذلك يزيد وهجها وقيمتها في تقدير الأولاد، خصوصًا الذين تجود عليهم عائلاتهم «بالخرجيّة» قرشًا لكلّ يوم. يعلّقون القروش بخيط، مثلما يعاملون التعويذة ويعلّقونها في العنق، أو يربطونها بكيس القماش (المخلاية) التي تحوي كتبهم...

***

ضمَّت جماع يدها. وكانت تُحسّ بأنّ القرش يدغدغ باطن كفّها، وتسري منه رعشات تبلغ أقصى أطرافها. ويمتلئ صدرها بشعور غامر، من الرضى، وهي تفكّر في الفرحة العظيمة الآتية، ووقوفها أمام شبّاك الصندوق...

كان الأولاد يتزاحمون، ويتحلّقون حول المحظوظ، والغارق في النعمة. ويُصغون إلى تعليقاته المرحة في أثناء الفرجة. ثمّ ينتظرون انسحابه ليمطروه بالأسئلة؛ بينما يتقدّم مشاهد جديد أمام الشبّاك.

إلى جانب الصندوق، كان رهوان يقف. يدير القرص السحريّ الغامض، وعينه على الزبون، يتابع ردود فعله، ويكرّر العناوين منغّمة، ويصعّدها، مع تصعيد المشاهد.

– وشوف تفرّج يا سلام.

***

لم تصدّق الطفلة أنّ دورها جاء... كانت تقف حافية. ذلك تتذكّره جيّدًا، لأنّها حين دُعيَت لتأخذ دورها، وتحتلّ مكانها أمام الصندوق، لم تتمكّن من بلوغ الثقب الذي يستقبل العين المشاهدة. فرفعَت قامتها فوق رؤوس أصابعها. وكان ذلك أسهل وهي حافية. وظلّت كذلك طوال فترة الفرجة، ولا تشعر بألم أو بتعب:

شوف تفرّج يا سلام
وتفرّج على عبله
ريت عيونا ما تِبلى
عبلة يا ستّ الأنام...

«عبلة»، البدويّة الجميلة، أبصرتها، بخِمارها وجلبابها. عيناها تنفتحان على وسعهما، وتحتلّان المساحة الأرحب من وجهها. وكأنّما تلك العبلة هي عينان، فقط. عينان كبيرتان، جميلتان. تنفتحان بدهشة، وتتفرّسان في مشهد غير منظور.

وتتمدّد، بنصف قوامها، فوق مقعد. والمقعد وثير. وقد زيَّنَت جبينها برباط شكَّت فيه دوائر ذهبيّة يزيد توهّجها بريق عينيها وبهاء حضورها.

وعبلة كانت تنتظر...

تلك العبلة الجميلة، الرافلة بالقصب والذهب، والجالسة سعيدة فوق المقعد الوثير، بدَت كأنّما هي في حالة انتظار.

بالطبع كانت تنتظره، فارسها الجميل، الشجاع...

ولا يلبث الصوت أن يعود، متابعًا وصف المشاهد:

وهيدا عنتر بن شدّاد
سيفو قاطع، من بولاد
ناطرها لآخر عمرو
بس بيّا يُصدِر أمرو...

***

تتساءل الآن، ومن هذا البعد في الزمان وفي المكان: هل حقًّا كان ينتظرها؟... عنترة؟... وحتّى آخر عمره؟...

وسيفه تهدّل. والحزن يغمر وجهه الأسمر، واليأس يحلّ، تدريجيًّا، مكان الشجاعة والإقدام. وعيناه تبدوان، الآن، مذعورتين... ليس بسبب موقف عمّه، والد عبلة، بل ربّما لشعوره العميق بالخيبة والاندحار، أمام تحوّلات التاريخ.

ربّما، لأنّه يدرك، الآن، أنّ سيفه بات يعلوه الصدأ. وهو ليس السلاح الملائم للذود عن شرف الحبيبة... عبلة، والأرض.

صورة عنترة في صندوق الفرجة، كانت مختلفة. وقد رسخَت في ذهن الطفلة ووعيها، جليّة، أبيّة. وكان غير هذا الفارس الحاضر منكِّسًا أعلامه، منتظرًا في فراغ الزمن. هذا العنترة الحاضر، لا يوحي بأنّه قادر على الإقدام، وتبقى عبلة خسارته الكبرى.

***

ماذا؟...

المشهد الأوّل انتهى.

راح النصف الأوّل من القرش، وبقي لها النصف الثاني. الفرصة الثانية والأخيرة:

شوف تفرّج يا سلام!...
تفرّج على سعدى
سعدى خانت أبوها
وتنكَّرَت لوعدا...

***

حتّى هذه الساعة، تنهض تلك الطفلة من أعماقي، حائرة، تسألني:

– مَن كانت سعدى؟... وما هي أهمّيتها في التاريخ، لكي يُفرد لها صندوق الفرجة فصلًا بكامله، ثمّ يعرض صورتها: خانَت أباها، ثمّ

خانَت رجُلَها؟... من أين اختاروها؟ وهل لأنّها امرأة؟ ومغلوبة على أمرها؟ ولا مَن يدافع عنها أو عن حقّها؟

بالطبع، لم تكن للصغيرة، يؤمذاك، جرأة لتسأل رهوان أو أحد الرفاق عن ذلك. كانت تلك مشاهد، معدّة سلفًا، تُمليها إرادةٌ لا تُرى، وتفرض على الجميع التلقّي والرضوخ.

***

لكنّ الأسئلة عادَت تنهض، في مرحلة تالية، ثمّ بقيَت ناهضة طوال العمر. وتظلّ في معظم الحالات، معلّقة في الفراغ، ولا مَن يجيب.

***

شوف تفرّج يا سلام!
هيدي حوالنا عالتمام
هَيْ دُنيانا السعيدة
بأنظمتها الجديدة
تفرّج يا حبيبي وشوف
شوف الحاله عالمكشوف

انتهَت الفرجة...

هبطَت من فضائها، وأراحَت قدميها على التراب. تحسَّسَت شعورًا مؤلمًا في رؤوس قدميها، لكنّها لم تأبه له. كانت غارقة في تلك السعادة العارمة والنابعة من الصندوق السحريّ.

***

وانتهَت الفرجة مرّة ثانية، بعدما كبرَت الطفلة، وصارَت تبصر المشاهد الحقيقيّة الكامنة خلف صور الماضي، وتتأمّل في واقعها، فتكتشف أنّ ما تبصره في حاضرها لا يحمل إليها السلوى، بل يسرِقُ منها السحر المدّخر من الماضي. وهي لذلك تحاول الآن أن تنبش في تلافيف الذاكرة، وتكتشف أنّ أحلى ما في تلك المشاهد، سوف يبقى مدفونًا في الخلايا المتوارية، ولن يكون في وسعها استخراجه، مهما تفنَّنَت.

***

تراجعَت خطوتين، كي تفسح في المجال لمَن حان دوره من بعدها. لكنّها ظلَّت تحسّ بأنّها مع كلّ خطوة، كانت تندفع مسافات غير محدودة في الزمان، وفي المكان، ولا تعود واقفة في الساحة ومن حولها الرفاق، الصبيان والبنات، وأمامها الصندوق، وصاحبه رهوان... بل راحَت تحلّق وترتفع وتسمع صداح موسيقى، وتهليل أصوات سماويّة، وعزفًا على كلّ الآلات المعروفة... وفي تحليقها، كانت تجاوز حدود

المكان: الساحة، الجورة وبيتها وعائلتها... وظلَّت تعلو، ولا تريد أن تحطّ في مكان بالذات...

هزَّها نبيل من كتفها:

– كيف كانت الفرجة؟

نعم. هذا نبيل. أخوها. الصوت صوته، وهو واقف قربها. صوته يشبه أصوات الإنس، وليس من تلك الأصداء «المسكونة» تأتيها من حيث لا تدري.

نبيل يعيدها دائمًا إلى الواقع.

راحَت تهبط ببطء، وهي تردّ عليه:

– انتظر دورك.

أفضل الأجوبة تلك التي تجيء عفو الخاطر.

لم تفكّر لحظة في الإجابة. فقط قالَت له فورًا: «انتظر دورك»، كأنّها، بجوابها، تحدّد دور الإنسان في هذا الوجود، وتُلخّص فلسفة، سوف تدركها في ما بعد، وفي إثر عدّة جولات لها مع الحياة، ومحطّات المعرفة...

لكلّ امرِئٍ دورُهُ، يضطلع بهِ، ودرب يسعى فوقه، ومهمّات ينفّذها، وأمامه بوّابات، تنفتح له ويعبرها، ولا يقوى على وصف سبل العبور، حتّى إذا جاء مَن يسأله كيف يصف مشاهداته، يردّ عليه ببساطة:

– انتظر دورك.

وما أكثر الذين لا ينتظرون! وحتّى لو أخذوا دورهم، يتسلّقون أكتاف جيرانهم، يتجاوزون كلّ الحواجز، ليأخذوا أدوار الآخرين...

وهي انتهى، الآن، دورها وتابعت تراجعها...

وكانت الساحة تعجّ بالأولاد وبالحماسة.

وظلّت هي تنسحب من أمام الصندوق، ثمّ من الساحة، حتّى أبعد نقطة عند بوّابتها. وكانت، خلال انسحابها، تتوقّف لحظات، تتلفّت إلى الوراء، ثمّ تتابع سيرها في اتجاه البيت، حيث أمّها تنتظرها.

واجبات البيت تنتظرها. وكثير من المهمّات العاديّة، والواقع الذي يثير في نفسها الضجر.

***

فوق الخطّ المنتشر في الفضاء، مُواكبًا خطاها في طريق العودة، كانت تسمع أصداء غناء، تترجَّع في الأجواء، كما في أعماقها. ثمّ يرتفع صوت أعلى منها جميعًا، يذرّ المرح والسعادة والأمل:

شوف تفرّج يا سلام!...

فتاة الأتلانتس

كنتُ أمرّ بها كلّ صباح، فأُبصرها جالسة فوق صخرة، عند حدود البحر، وقد أدارَت ظهرها إلى اليابسة، وتوجَّهَت إلى نقطة ما، عند الأفق.

لم أجد في ذلك أيّة غرابة: فأنا أيضًا، من هاويات البحر، وفي استطاعتي أن أقضي ساعات في تأمّل الأمواج وهي تتقلّب، تتدافع وتتسابق حتّى تبلغ نقطة النهاية عند أطراف الشاطئ، فتلطمها ثمّ تتراجع؛ وتعاود الكرّة على امتداد اللحظات، من دون أن تملّ أو تتعب.

***

ومع مرور الأيّام، صرتُ أعتبرها من بعض معالم الطبيعة، في تلك النقطة الجميلة من الجزيرة... فالصخرة، التي اختارتها الفتاة مقرًّا للجلوس والتأمّل، تقع على طرف لسان من اليابسة، يخترق البحر، وكأنّه امتداد لسخرية عابثة من الجزيرة، التي لا تملك وسيلة أخرى للدفاع عن النفس؛ وخصوصًا أنّ الأمواج تتناوب على لطمها، من كلّ الجهات والأطراف، وتحمل إليها، في بعض الفصول، صفعات في غاية القسوة والشراسة.

لكنّ ما كان يهمّني ليس علاقة الجزيرة بالبحر، بل تلك الصبيّة الجميلة، المتأمّلة والغريبة عن كلّ ما يحيط بها.

***

كنتُ أحسبني الوحيدة التي لاحظَت استغراقها ساعات في تأمّل البحر، فيما الناس حولها يلهثون خلف العمل، ولا يجدون الوقت، ليُلقوا عليك التحيّة. لكنّي اكتشفتُ شخصًا آخر، يقف لها بالمرصاد. ويتأمّلها من مسافة معيّنة، هو أحد الخفر المنتشرين على أطراف الشاطئ.

استوقفني ذات يوم، وكان قد انقضى على وصولي إلى الجزيرة ما يقارب الأسبوعين، وطرح علي سؤاله:

– هل هي صديقتك؟

وأشار بإصبعه إلى حيث تجلس الفتاة.

فاجأني سؤاله، وأفرحني في آنٍ واحد؛ فبينما لم أسمح لنفسي بأن أقترب منها، أو أُعكّر صفاء خلوتها... كنتُ أتوق إلى التعرّف إليها، واكتشاف سرّها. لذلك أجبت بسؤال من عندي:

– لا، ليسَت صديقتي، ولكن ما الذي جعلك تفكّر في ذلك؟

قال:

– وجودكما في هذا المكان، وفي كلّ يوم.

قلت:

– إنّي متنزّهة، أحبّ البحر، والسير بمحاذات الشاطئ. وهذه فرصة فريدة أغتنمها لأتنعّم بجمال المكان، وهدوء الجوّ.

لم يَبدُ عليه أنّه اقتنع بكلامي، فعاد يسأل:

– ألا ترين بعض الغرابة في تصرّف...

وقطع العبارة، فأدركتُ أنّه يحاول أن يشملني إذ قصد القول: «تصرّفكما»... وشعرتُ بأنّه ليس متطفّلًا، بقدر ما يبدو عليه القلق والارتباك. فهو، كما أخبرني، يعمل في الوظيفة منذ ثلاثين سنة. ولم يصادف حالة مشابهة لحالة تلك الفتاة!...

– ثمّ جئتِ أنتِ...

ابتسمتُ، كي أمسح آخر الشكوك من ذهنه:

– أنا ضيفة. أزور جزيرتكم إلى حين. وقد أُعجِبتُ بهذه البقعة منها، حيث يمكنني تأمّل الموج، بينما أتمشّى بعيدًا عن ضجيج المدينة، وهدير العجلات. هنا، كما ليس في أيّ مكان آخر، يكاد المرء يسمع صراخ السكينة، وأصداء ذلك الصراخ، تردّده طيور النّورس. أَلا توافقني في الرأي؟

تأمّلني الخفير طويلًا، ولم يُعلّق، فبَدا لي أنّ كلامي لم يسجّل عنده أيّ معنى؛ فهو رجل عمليّ. وإذا لم يكن هناك عمل يربطني بالمكان وبالحركة الدائرة ضمن حدوده، فلا ضرورة لاهتمامه.

تجرّأت من جديد، وسألته:

– متى بدأَت الفتاة جلسات التأمّل تلك؟

– لاحظتها مع بداية الربيع الماضي. أيّ قبل سنة ونصف من هذا التاريخ؛ لأنّ الجلوس فوق تلك الصخرة، يستحيل في فصول

البرد والثلوج. وها نحن على عتبة الخريف، وسوف تبقى هنا، ما دام الطقس يسمح بذلك... تأتي راجلة، تخلع حذاءها قبل أن تتسلّق الصخرة ثمّ تجلس ساعات، في نقطة واحدة، حتّى إذا أزعجها هبوب الريح، أو فاجأها سقوط المطر، نهضَت، لتعود من حيث أتت، من دون أن تلتفت إليّ أو إلى أيٍّ كان.

وتابعتُ استجوابه:

– هل سبق لك أنْ كلّمتها؟

قال:

– نعم. حاولت اعتراضها مرّات عديدة. في المرّة الأولى، اقتربتُ من الصخرة، وسألتها عمّا إذا كانت تبغي مساعدة، أو تبحث عن ضائع. فلم تتكلّف الردّ عليّ. وحسبتها صمّاء. فمضيتُ خطوة أبعد في سبيل الاقتراب منها، إذ تسلّقتُ الصخرة، وتقدّمتُ حتّى صرتُ في مواجهتها ثمّ كرَّرتُ السؤال، لكنّها لم تنظر إليّ. ولم يَبدُ عليها أنّها سمعَت صوتي، أو شعرَت بوجودي. كانت عيناها غارقتين في نقطة معيّنة من البحر، بينما ظلَّت بقيّة معالم وجهها في حالة جمود... تراجعتُ، وقد اعتراني شعور بالخجل والخيبة. لكنّي لم أكفّ عن مراقبتها. بل صرتُ أشدَّ حرصًا على ذلك، لأنّ حماية المواطنين مسؤوليّتي، وعليّ أن أحسب كلّ الحسابات.

– مثلًا؟...

اعترضته، إمعانًا في استدراجه، فتابع:

– الانتحار. هذا إمكان وارد. لا أحد يمكنه أن يتنبّأ بما يفعله شباب هذا الزمان. يكون الواحد منهم في غاية التوازن، عندما ينفجر فجأة، ويثور لأتفه الأسباب. أو يكون عاقلًا، هادئًا، لطيفًا لا يؤذي نملة، وإذا بنا نسمع ونقرأ أنّه أطلق على نفسه النار. أقول لك: شباب هذا الزمان غريبو الأطوار والتصرّفات؛ لذا تقتضيني واجباتي أن أكون حذرًا، وأبقى مفتّح العينين، ساهرًا.

وافقته مؤكّدة:

– معك كلّ الحقّ... أبقِ عينيك مفتوحتين جيّدًا، وفي كلّ لحظة...

قلت ذلك وهمَمتُ بمتابعة المسير، فعاد يستوقفني:

– أخبرتك عن الاعتراض الأوّل، فقط.

سألت:

– وهل أعدتَ الكرّة؟

– نعم. وهذا ما زادني دهشة وعجبًا. فحين فشلتُ في استدراجها إلى الكلام في المرّة الأولى غيَّرتُ أسلوبي. فكَّرتُ: «تبدو الفتاة من النوع الحالم، المتأمّل. وهي، لذلك، ترفض الخروج من دائرة تأمّلها لتكلّم أحدًا، أو تسمع صوتًا من الخارج»... هناك جماعات تمارس هذا السلوك، تعرفين ذلك... لذا انتظرتُها في المرّة التالية عند المنعطف، واعترضتُ سبيلها قائلًا: «لست متطفّلًا، يا آنسة. ولا أحاول إخافتك، لكنّي مأمور، أمارس وظيفتي. ومن بعض مسؤوليّاتي أن أعرف ما الذي يدور في نطاق محيطي...». توقَّفَت عن السير، وبدا لي أنّها

تصغي إلى كلماتي، وهذا ما شجّعني لأتابع حواري معها: «هل لي أن أعرف الغاية من مواظبتك على زيارة هذا المكان؟ وقصدي مساعدتك، إذا كنت تبحثين عن مفقود».

ابتسمَت بلطف وقالت:

– أنت؟...

أجبت:

– نعم أنا... أنا موظّف هنا، للمساعدة، للخدمة.

وسألت:

– منذ متى بدأت القيام بهذه المهمّة؟

أجبتُ:

– منذ ثلاثين سنة.

فهزَّت رأسها، وقد تحوَّلَت ابتسامتها اللطيفة إلى تعبير ساخر:

– ثلاثين سنة... هه!...

وتابعَت سيرها.

اعتبرتُ تلك بداية حوار مفيد. لذا بادرتها في اليوم التالي بالتحيّة، وانصرفتُ إلى العمل في مكان بعيد عنها. وفجأة سمعتُ نداء يقرب من الصراخ: فهرعتُ إليها، ووجدتها واقفة عند طرف الصخرة، وكأنّها تتأهّب لقذف نفسها بين أشداق اللجّة... فقفزتُ بسرعة النمر وأمسكتُ بذراعها:

– ماذا تحاولين أن تفعلي، أيّتها الآنسة؟

لم تشعر بقبضتي فوق ذراعها.

كانت مأخوذة بمشهد لم أتمكّن من رؤيته. أشارَت إليه بمرح عظيم، وهي تردّد:

– أبصرتُها... أخيرًا أبصرتها!

هزَزتُ ذراعها:

– أبصرتِ ماذا؟...

– مدينتي...

أجفلني الجواب، وجعلني أشدَّ حذرًا: أنا، إذًا، أتعامل مع فتاة غير طبيعيّة، وأقلّ هفوة منّي، يمكن أن تتسبّب بكارثة. وفكَّرتُ في أن أُحكِم قبضتي عليها، ولا أدعها تفلت منّي حتّى يتسنّى لي إعلام الشرطة، فتسعى إلى البحث عن أهلها، أو أيّ شخص يتولّى مسؤوليّتها.

لكنّ هذه الأفكار التي راحَت تغزو رأسي، وتهزّ كياني، كانت بعيدة عنها. فقد استمرَّت تهتف، بمرح:

– أبصرتها... أخيرًا، أبصرتها.

وسألتها من جديد:

– أين تقع مدينتك، يا فتاتي؟

فدلَّتني يدها:

– هناك... ألا تبصر رؤوس الأشجار تلامس صفحة الماء، وتكاد تطفو فوقها، ومعها قباب المباني؟ انظر...

ونظرتُ، أمعَنتُ النظر، فلم أبصر شيئًا... واستدرجتها لتزيدني كلامًا:

– تقصدين القول إنّ مدينتك غارقة تحت الماء؟

– تمامًا... أوَلم تسمع بها؟! اسمها أتلانتِس. وكانت أكبر مدن القارّة العظيمة... قارّة أتلانتس. أجمل مدن الوجود كانت...

– عن أيّ زمان تتحدّثين؟

– أحد الأزمنة الغابرة. وهو لا يُقاس بعدد السنين، أو حدود التاريخ.

– وأنتِ عشتِ في ذلك الزمان الغابر؟!

– وكانت لي أسرة سعيدة: زوجي حاكم المدينة وأولادي أجمل خلق الله...

– وما الذي جرى؟...

طرحتُ السؤال عفوًا. فقد بدأَت القصّة تسيطر علي وتغريني. وكنت أنوي أن أمضي مع الفتاة حتّى النهاية؛ فتابعَتِ السرد، وكأنّها واقعة تحت تأثير منوّم مغناطيسي:

– كيف أصِف لك، وأنتَ من هذا العصر المتخلّف؟ كيف أصف لك جمال ذلك العالم، وتفوّق الإنسان فيه، والسعادة التي تغمره؟... نعم، الناس كانوا، جميعًا، سعداء. لم يكن هناك قويّ وضعيف، غنيّ وفقير، مريض وصحيح... الناس كلّهم كانوا سعداء، أصحّاء، حكماء. كانوا يعيشون بنعمة الحكمة ولا يعرفون القلق، أو الخوف من الغد. لم

يكن هناك ما يُهدّدهم فهم ينعمون في سكون جنّة أرضيّة. حيثما قلّبتَ نظرك، تبصر الغابات، والحدائق، وفيها الطيور الجميلة، والحيوانات اللطيفة، وتبصر الأنهر والبحيرات، والجبال الشاهقة، والسهول الرحبة، والناس يقيمون في مساكن مزوَّدة بكلّ وسائل الراحة، فلا يشعرون بالبرد أو الحرّ. ولا يُنغّص عيشهم ضجيج آلة. كانت لهم آلات تخدمهم من دون أن تلوّث أجواءهم بالضجيج. ومصانع تعطيهم ما يحتاجون إليه، من دون أن تفرز القذارة أو تشوّه جمال الطبيعة... كانت مدينتنا متفوّقة في كلّ المرافق. وفوق قمّة الهرم، يقف الإنسان، شامخًا، وسيّدًا... واستمرَّت على تلك الحالة إلى أن...

***

بلغَت الفتاة هذا الحدّ من الرواية، ثمّ توقَّفَت عن الكلام فجأة. وخشيتُ ألّا تُكمل، فعدتُ أسألها، بل أرجو منها:

– وماذا حصل بعد ذلك؟ تابعي...

لم يَبدُ عليها أنّها سمعَت سؤالي. فكرَّرْتُه مع الرجاء مرارًا. لكنّها ظلَّت صامتة. وهربَت عيناها إلى تلك النقطة الغامضة من البحر، ولم تعودا العينين المرحتين، المشرقتين والمتحمّستين لسرد الحكاية.

قلتُ لها بصوت هادئ:

– ربّما أتعبْتُك. أتمنّى أن أسمع بقيّة الحكاية في مرّة أخرى.

لم تُبدِ أيّ ردّ فعل. ولاحظتُ الحزن يغزو وجهها، وكأنّما الحلم الذي انتشر فوق قسماته لحظات، ونقلها إلى تلك الصحوة الفريدة، قد تقلّص وتوارى خلف قناع الضباب!...

تراجعَت من مكانها، وهبطَت من فوق الصخرة، ثمّ انحنَت لتلبس حذاءها ورحلَت...

***

غادرَتني في حيرتي وتساؤلي:

– هل يُعقل أن تبتكر القصّة من خيالها؟ ما هو سرّ المدينة؟ وهل الجنون فنون، مثلما يقول المثل؟...

لم أشأ الوقوف عند هذا الحدّ. ففي المساء، قمت بزيارة جار لي يعمل مدرّسًا في الجامعة وسألته عمّا إذا كان سمع بمدينة اسمها أتلانتس. فنظر إليّ بدهشة وسأل:

– لماذا تطرح عليّ سؤالك؟ وأين عثرتَ على هذا الاسم؟

لم أشأ أن أخوض في التفاصيل، لذا قلت له إنّ ابني طرح عليّ هذا السؤال، ولم أستطع الإجابة، فلجأت إليه، لكونه أستاذ تاريخ... وبالطبع، معلوماته تفوق ما عندي.

فقال:

– إنّه اسم أسطوريّ. يمكنك أن تقول ذلك لابنك. وإذا شاء المزيد من المعلومات، فليتابع البحث في إحدى الموسوعات. إنّها ليست مدينة، بل قارّة أسطوريّة، يُقال إنّها غرقت في قاع المحيط الأطلسيّ.

تحدّث عنها الفيلسوف أفلاطون في حِوارَين من حواراته. وكانت مدار أبحاث عديدة في القرون الوسطى. وهناك مَن يعتبرها القارّة الأميركيّة المنفصلة عن بقيّة الكتلة الأرضيّة. كما أنّ نظريّة أخرى تقول إنّها تقع في محيط البلدان السكندنافيّة، أو جزر الكناري أو قرب فلسطين... هذا بعض ما كتبه الباحثون عنها، إنّما في استطاعة ابنك أن يقوم بالمزيد من البحث. فهي حكاية شيّقة، تُثير الخيال، بلا شكّ...

***

هذا ما رواه لي الأستاذ. وهذا ما جعلني أُكتِّم سرّ الفتاة: فهي إذًا، لا تبتكر ولا تلفّق الحكاية، أو تنسجها من الخيال. ثمّ كيف لي، أنا البسيط الجاهل، أن أُلمّ بأسرار من هذا النمط أو أفهم معانيها؟... لذا عدتُ في اليوم التالي، إلى مقرّ عملي، فوجدتُ الفتاة في مكانها. غير أنّها توقَّفَت نهائيًا عن الردّ على أسئلتي.

بقيتُ معها في حالة المراقبة والوجل، حتّى إذا ما حلّ فصل البرد والعواصف، اختفَت آثارها، ولم أعد أبصر وجهها حتّى جاء الربيع التالي.

فسألته باهتمام:

– وهل نجحتَ في استدراجها، من جديد، إلى متابعة الحكاية؟

فقال:

– لا... مع الأسف، فشلَت كلّ محاولاتي واكتفيتُ بالمراقبة... المراقبة فقط، وهي لا تُبدّل سلوكها. لذا لم يكن هناك أيّ تحوّل في

الأجواء حتّى جئتِ أنتِ، وحسبتكِ رفيقة لها، أو... مواطنة من تلك المدينة المجهولة!

إبتسمتُ للدعابة وقلت:

– والآن، يمكنك أن تُريح بالك، إذ لا علاقة تربطني بالفتاة، أو بمدينتها.

فردَّ، وقد تخلّى عن لهجة السخرية:

– مَن كان في موقفي، لا يجوز له أن يُهمل التفاصيل، وإن لم تَبدُ هناك علاقة تربط بين أجزائها.

قلتُ وأنا أهمّ بالانسحاب:

– إنّك على حق. وعليك أن تتابع المراقبة جيّدًا: فقد تعود مدينة أتلانتس فتبدو لها من جديد، تحت صفحة المياه الشفّافة، وعندها، مَن يدري ما الذي قد يحدث؟...

***

هذا كلّ ما شهدته من الحكاية-اللغز... ثمّ هبط فصل العواصف والصقيع، وتوقّفْتُ عن نزهتي الصباحيّة، وظنَنْتُ أنّ الفتاة هجرَت الصخرة، مثلما دأَبَت أن تفعل، حسب رواية الخفير. فكدتُ أنسى أصل الحكاية وفصلها، حتّى فوجئتُ، في صباح يوم، بصورة الفتاة عينها، تتصدّر الصفحة الأولى، من جريدة الصباح... وتبادَرَ إلى ذهني، أنّ الحلم قد تحوّل إلى واقع: فنحن نعيش في عصر الدهشة والغرائب.

وربّما عثر العلماء، بواسطة الفتاة الحالمة، على القارّة المفقودة منذ ألوف السنين و...

***

سارعتُ إلى قراءة العنوان والخبر. وجمدَ الدمُ في عروقي. رفعتُ رأسي باحثة عن الخفير كي أسأله: «ما الذي حدث؟ ولماذا أهمل واجبه؟»...

ثمّ تذكَّرتُ أنّي لست عند الشاطئ بل في غرفة نومي، جالسة في سريري، وفي يدي جريدة الصباح، تحمل نبأ موجعًا:

«اختفاء فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، تدعى جوان... تعوَّدَت الجلوس فوق صخرة عند طرف اللسان، متحدّية أمواج المحيط الأطلسي. وكان من عادتها، كما شهد خفير السواحل، أن تقضي ساعات، في تأمّل نقطة غامضة، في قلب المدى الأزرق»...

حبّةُ البَرَكة

يعود المشهد، ينفرش في أعماق الذاكرة ويحتلّ مساحة النظر:

يدها السمراء، بعروقها النافرة وبقعها الملوّنة ووَشْمِها القديم، تنطبق بإحكام على سرٍّ غامض! ثمّ تقترب هذه اليد من يد الطفلة، البضّة الملساء كأنّها خارجة من أعماق وردة... وتهمس الجدّة في أُذن حفيدتها:

– افتحي يدَكِ، يا ستّي...

فترتفع عينا الطفلة إلى الوجه الذي يذكّرها بشعاع شمس يتكسّر على صفحة ماءٍ جارٍ، وترُدُّ سائلة:

– ماذا تخبّئين في باطن كفِّك؟

– قلت لكِ: افتحي يدكِ...

الطفلة لا تستطيع فتح يدها بسهولة. إنّها لا تعرف أيّ وعدٍ يحمل إليها وجه «ستِّها» المحبَّب، ولكنّ شكوك الجهل الطفل تغلّف ضميرَها، فترُدُّ بتمرُّد:

– لا. لن أفتح يدي قبل أن تفتحي أنتِ يدكِ وأرى ما في داخلها.

– إذًا، لن تحصلي على السرّ.

– بلى، أحصل... بلى، بلى...

تتغنَّج الطفلة، تلبط الأرض بقدمها، وتهمس:

– دعيني أرى ما في يدكِ... دعيني...

– بنت عنيدة! هذه أنتِ...

تقولها الجدّة، بإصرار، ثمّ تحمل الطفلة فوق حضنها، فتطرد حركتُها التردّد من نفس حفيدتها وتبسط الحفيدة كفّها؛ وبأقلّ من لمح البصر تنطبق يدُ الجدّة على يد الحفيدة، ثمّ تفرج عنها قائلة:

– الآن، يمكنك أن تُطبِقي يـدك، بعدما زرعـتُ فيها الحبّة الصغيرة...

– الحبّة الصغيرة؟!

– نعم، واحزري ما هي...

– كيف أحزر وأنتِ لم تخبريني؟!

– أنا أتَّكِل على ذكائك. انظري إليّ... يا الله! أين اختفى بريق الذكاء؟ والبنت الشقيّة أين هي؟!

– البنت الشقيّة هنا، في حضنك، وتنتظر أن تقولي لها ما هي الحبّة التي زرَعْتِها في كفّي...

– إنّها حبّة البرَكَة.

– وهذا اسمها الحقيقيّ؟!

– نعم، ومنذ عرفناها في حقولنا...

– وماذا أعمل بها؟

– تحملينها إلى البستان، وتبحثين عن زاوية خصبة تزرعينها فيها.

– وهي تنبت مثل القمح والزيتون؟

– مثل كلّ نبات حيّ...

– وتكبر؟

– طبعًا تكبر، وتغطّي مساحة كبرى من البستان، ثمّ تُزهر وتُثمر. والثمار تُعطي بذورًا صغيرة كالتي في يدك، فتعود إلى التراب من جديد لتتكرَّر دورة الحياة...

كانت الحفيدة تُصغي بمنتهى الاهتمام إلى حديث الجدّة، حتّى إذا ما توقَّفت هذه عن الكلام، قفزَت هي من حضنها وراحت تعدو، يسابقها ظلُّها، صوب البستان حيث اختارَت بقعة خصبة، في إحدى الزوايا، رمَت فيها «حبّة البركة»، ثمّ رجعَت وصدرها مملوء صبرًا وانتظارًا...

***

– كم يومًا ينتظر الفلّاح، حتّى تنبت حبّة القمح؟

– ينتظر أيّامًا طويلة...

– وماذا يفعل طوال الانتظار؟

– يغنّي. يجلس أمام الموقد، بينما عواصف الشتاء تتعارك خارج جدران مسكنه، والرياح تُعوِلُ بين الأودية، تتحدّى الشجر، تحطّم الأغصان وتقتلع كلّ ما يعجز عن الصمود في مسار هبوبها...

تُرعِد الرعود، تبرق السماء وترتدي الأرض حلّة رماديّة أو ثوبًا ناصع البياض...

... هذا كلّه يجري في الخارج، والفلّاح يوقد النار ويتأمّل ألسنة اللهب، فينتقل معها إلى عالم الذكريات، وقلبه مطمئنّ إلى أنّ هذا الذي يجري الآن سبق وجرى من قبل، وليست هذه هي الزيارة الأولى التي يقوم بها «شهر الغرس» فيتفقّد الكروم والبساتين، إنّه يعود في موعد لا يُخلِفه، ومعه جيوشه والعتاد كلّه...

ويجلس الفلّاح، فوق «طرّاحة» من صوف الغنم، عباءته فوق كتفيه تُدثّر جسمه وتتّسع أطرافها لحَضن صغار العائلة...

ويُصغي إلى همس أفكاره وأحاديث أطفاله، وينتظر...

وفي بعض الأحيان، تأخذه الرحلة إلى أعماق الخلايا المظلمة، بين السراديب الخفيّة، حيث تسرَّبت من راحة يده حبّات ذهبيّة تغفو في باطن التراب... فيُخيَّل إليه أنّه يرى بريق الحبّات يتّسع في الظلام، ويسمع الحبّات تهمس في أذنه أسرار الأعماق.

يرتدّ الفلّاح، من سرحته تلك، وفوق شفتيه بسمة رضى، فإذا ما سأله أحدهم عن سرّ هذه البسمة، لا يبوح... إنّه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بذلك المكان الغامض من أحشاء الأرض، وهو موعود بأنّ الغيوم لا تلبث أن تنجلي، فتشرق الشمس ويتسرّب الدفء عميقًا ليلامس الحبّات ويفجّر الحياة في أحشائها، فترسل أوراقها الخضراء الأولى تشقّ بها سبيلها إلى الوجود...

***

كانت مدّة الانتظار طويلة، بالنسبة إلى «الفلّاحة الصغيرة» وهي تخرج إلى البستان عدّة مرّات، كلّ يوم، وتتلمّس بأناملها البضّة صفحة التراب، باحثة عن الوعد الأخضر... حتّى إذا ما فشلَت في المهمّة، عادَت تتكوّم على نفسها، مثل نجمة البحر، وتحمل إلى الجدّة احتجاجها العالي:

– لم تنبت بعد... انتظرتُ ولم تنبُت!

– لم ينقضِ يومان على زرعها...

– وإلى كم يوم تحتاج البذرة حتّى تنبُت؟

– إنّها تحتاج إلى كثير من الانتظار والصبر...

– تقصدين انتظار الفلّاح؟

– تمامًا...

فتأفّفَت الحفيدة قائلة:

– لا أُحبّ الجلوس أمام الموقد والانتظار... أُفضّل أن أقفز وألعب وأُطارد قطّتي البيضاء وأتحدّى العصافير و...

– ولكن، بعد أن تعملي هذا كلّه، يجب أن تجلسي فوق الشرفة، أو في البستان، لتتأمّلي ما حولك وتراقبي درب الغيوم...

– وهل هذا ضروريّ لتكبُرَ النبتة؟!

– ولتكبري أنتِ، يا غالية.

***

وكان صباح جديد، انقشعَت الغيوم فيه، وعادَت الشمس إلى الأرض بكلّ عطفها وحنانها...

استيقظَت الصغيرة باكرًا، واستيقظَت معها عصافير «الدّوري» وراحَت تنقر دفّات الأبواب والنوافذ، كأنّها تحمل بشارة مهمّة!

ارتدَت الصغيرة ثيابها بسرعة، وخرجَت إلى البستان من دون أن تمسح عمش الليل عن عينيها... كان هناك جاذب قويّ يشدّها ويرفعها عن الأرض حتّى تكاد تنسى ثقل الجسد...

قالت، تهدهد أفكارها القلقة:

– اليوم تحدث المعجزة... اليوم...

وكان يرافقها سرب من العصافير، أشبه بحرس أُمناء في موكب أميرة...

عند «الزاوية» توقَّفَت، في المكان المطبوع فوق سواد العينين، وتأمّلت فأبصرتها:

بضع أوراق خضراء، ناحلة، خجولة ومتردّدة!...

قفزَت وراحَت تصرخ فَرِحة:

– أخيرًا طلَعت... أطلَّت عليّ...

وعادَت إلى جدّتها قفزًا:

– رأيتُها، يا ستّي، جميلة وخضراء...

وبعد لحظات صمتَت وعادَت تسأل:

– كيف تخرج الأوراق خضراء من بذرة سوداء؟!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابتسمَت الجدّة وهي تغمرها بحنانها:

– إنّها أعجوبة الخلق. وأنتِ، الآن، أمام الدرس الأوّل في الحياة...

فاحتجَّت الحفيدة: «ولكنّكِ لم تقولي إنّ هذا كان درسًا!»

فقالت الجدّة:

– تركتُ لكِ مسألة اكتشافه...

***

كان عليها أن تنتظر أكثر، لتختبر كلام جدّتها وصحّة قولها بأنّ «حبّة البركة» تفرش غابة...

وكان عليها أن تنتظر بصبر وأناة...

في كلّ يوم صارَت تكتشف أنّ الجدّة فتحَت لها الباب وأطلعَتها على جزء صغير من السرّ الكبير... وهي واقفة عند العتبة، تتسارع أمامها مشاهد مذهلة!...

وعند الباب تركَتها جدَّتها لتقوم بالرحلة الأبديّة...

***

واليوم، ها هي أمام مشهد آخر:

عيناها تغلّان في كثافة الخضرة وتعبران غابات لا حدود لها، تُحيط بالدار وترتفع فوق الأسوار ثمّ تتلاصق، مع انبساط السهول، مثل جنّيّات في حفلة راقصة...

عبثًا حاولَتْ أن تُحصِيَ عدد تلك الأشجار التي كبرَت خلال سني حياتها، فكلُّ شجرة كبيرة تظلِّل أعدادًا لا تُحصى من شجيرات نمَت مع توالي الفصول...

طفلة الأمس تقف اليوم، وسط هذه الغابة، وقد صارَت امرأة في نضج العمر، تقرأُ الكلمة المكتوبة فوق كلّ ورقة خضراء وعلى كلّ ذرة من تراب: «حبّة البركة»... ثمّ ترى يدًا معرَّقةً، مبقّعة تنطبق بإحكام على سرّ غامض... بل على كنز... وهذه اليد متَّصلة بجسد لم يعد يُرى بالعين، يمتد إلى ما وراء حدود الوعي... وعبثًا تحاول «طفلة الأمس» أن تطرح على صاحبة اليد أيّ سؤال... تبحث عن وجه تحاوره، فلا يطالعها غير امتدادٍ لقامةٍ ترتبط بها عدّة كيانات غير مرئيّة...

قالت، وهي تدور حول الأشجار وترقص رقصة الدراويش في ليالي الصفاء الروحيّ:

– لو كانت ستّي هنا، فرحَت مثلي بثمار الحبّة الصغيرة.

ثمّ ردَّدت، بينها وبين نفسها:

– حين رحلَت، كانت هناك شجرة واحدة في أوّل الطريق... كم أتوق إلى رؤية وجهها، حبّة البركة!

فخُيِّل إليها أنّها تسمع أصواتًا تنطلق من حفيف أوراق الشجر ثمّ تطرق أُذنيها مؤكّدة:

– إنّها هنا، وإن كنتِ لا ترينها...

وردَّت على الأصوات بكثير من الأسف:

– ولكنّها رحلَت... أنا أغمضتُ عينيها وكنتُ آخر من ودَّعَت.

فعادَت الأصوات تتآلف لتصبح سؤالًا صعبًا:

– وأنتِ ماذا تعرفين عن السرّ الكبير؟

***

قالت لها جدّتها:

– إنّ السرّ هو في البذرة الأولى، فإذا انطلقَت لا يبقى هناك أسرار، بل تنتشر في النور وفي العيون المشتاقة...

وقالت لها:

– أطبقي يدكِ جيّدًا كي لا تهرب البذرة. ولكن، عندما تجدين تربة خصبة، بادري إلى زرعها...

***

خطواتها تسابق الريح، تسابق الخيال، تتسلّق جبالًا أثيريّة غير منظورة، والغابة تسير معها؛ وفوق كلّ ورقة تقرأ، مثلما تقرأ العصافير والفراشات، كلمات كُتبَت بخطّ واضح وحروف نافرة: «حبّة البركة»...

بقايا رجل

هذا هو الرجل.

بقيّة الرجل.

ما أبقَت منه جولات لا يُحصيها عدّ. جولات حرب مدمّرة، لا تُعرف لها «بداية» ولا نهاية.

هذا ما تبقّى منه:

جذع ثخين، حذفَتْ منه الضربة الأخيرة الساقين، وصولًا إلى منتصف الفخذين. وكانت ضربات أخرى سابقة لها قد بترَت الساعدين، واحدة عند الكوع والثانية من أعلى الكتف.

وثمّة ضربة ثالثة، قالوا إنّها شظيّة، جذمَت الأنف، فتعاون جرّاحو التجميل، بكلّ ما أوتوا من مهارة، على تركيب أنف من البلاستيك، برغم كلّ المحاولات الفنّيّة، بقي عاجزًا عن ردّ الهلع الذي تغرسه في النفوس نظرةٌ، ولو عابرةً، إلى ذلك الموضع من وجهه.

كذلك تعاون جهابذة الجراحة على تأهيل الساعدين وتركيب بديل لكلّ واحد منهما.

***

وقال (ج) في إثر الضربة الأولى:

– الحمدلله، أنّي فقدتُ ساعديّ بدلًا من أن أفقد ساقيّ؟ ذلك أنّي رجلٌ يُحبّ الحركة والمشي.

وظلّ (ج) يتحرّك ويمشي، ولم تؤثّر فيه نظرات الفضول، يُطلقها الناس في اتجاهه كلّما لمحوه في الشارع. كما لم يزعجه، أو يخفّف من مرحه، تحديق الأطفال طويلًا إلى وجهه وساعديه، قبل أن تندّ عنهم صرخات غريبة، يفرّون بعدها في كلّ اتجاه... ذلك أنّ (ج) المرح أبـدًا، والـذي لم تؤثّر فيه تلك الضربة الصاعقة، كان يتضايق بصورة خاصّة من نظرات الأطفال. فهو يعرف كيف يتعامل مع الكبار، أمّا أولئك العفاريت الذين يقفزون في وجهه عند كلّ منعطف، فقد كانوا يفاجئونه، ولا يعطونه فرصة لإعداد الردّ الملائم والذي «يشفي الغليل». وكانت وسيلته الوحيدة للدفاع عن النفس، إطلاق صرخات راعبة تجعل الصغار يطاردون خيالاتهم وهم يفرّون من دربه ويتوارون إلى حين... أيّ إلى حين ينسون صدى الصرخات، فيعودون ليطلّوا على الرجل من منعطف جديد:

– أولاد الكلاب...

يقولها (ج) ثمّ يتابع سبيله مستعيدًا مرحه وانشراح صدره، ومتابعًا دندنة، ولو بصوت خافت، لما حفظه من الأغاني والمواويل الشعبيّة.

***

قبل الحادث الأوّل، كان (ج) ممتلئًا صحّة وعافية. في الواقع كانت تلك حاله دائمًا، ومنذ طفولته عُرِف بقوّة بنيته، ولم يشكُ يومًا من ألم أو مرض. جسمه يميل إلى السمنة، ويشرق وجهه بأنوار الصحّة، أو كما تصفه عجائز القرية: «إذا نقّفت خدّه بإصبعك، يفرّ منه الدم».

والذين أصابوه لم يستخدموا الأصابع، ولا لعبة «من نقفك يا جاموسة». بل كانت ضربة صاعقة فاجأته وهو متعلّق بغصن شجرة من أشجار الزيتون الدهريّة في «حاكورة الجورة». وكان ذلك في موسم قطاف الزيتون. و(ج) لا يعتمد على الأُجَراء، بل يُفضّل أن يجمع بيديه تلك الحبّات الدسمة، ويتمتّع بكلّ ما في موسم الجنى من لذّة، خصوصًا أنّ موسم ذلك العام كان مقبلًا، والنفس عامرة بالفرح والرجاء.

وهكذا فاجأته الطائرات المغيرة في جنوب لبنان. هبطَت مثل الغضب، من سماء تتسابق فيها غيوم تشرين، وانقضَّت على الناس في ذروة انشغالهم؛ ومن دون سابق إنذار، راحَت تُمطرهم بالقنابل المحرقة، واحدة منها انفجرَت عند جذع الزيتونة، وشطرَتها إلى شطرين، وتطايرَت الشظايا إلى فوق... إلى فوق متّجهة إليه... وكان هو معلّقًا كالطائر، يمسك غصنًا بكلّ يد، وفجأة هوَت به الأغصان ومعها ما تبقّى من ساعديه. وسقط جسمه الممتلئ صحّة وعافية، سقط من ذلك

الارتفاع وارتطم بالأرض. ولم ينتبه إلّا بعد حين؛ على أنّ شظيّة جذَمَت أنفه، وأخرى استقرَّت بين طيّات صدره، وفجّرَت منه دماء غزيرة، راحَت تتدفّق من جهة القلب، ثمّ تتخثّر وهي تمتزج بالتراب الأحمر، وتغور إلى الأعماق مؤكّدة حبّها للأرض وولاءها للمكان.

***

لا، هذا ليس كلام (ج)، إنّما هو من بعض أفكار أضافتها، في ما بعد، الصحف والإذاعات وهي تتفنّن في وصف الحادث.

أمّا الرجل، فقد خضع الخضوع التام لرحمة الجيران والأقارب، الذين تعاونوا على نقله إلى أقرب مستشفى، حيث ساعده الأطبّاء في تضميد جراحه. ولم يلحظوا، إلّا بعد حين، أنّهم، خلال العمليّات العديدة التي أجروها لتضميد الجراح، لم يستخدموا مادّة التخدير (البنج). فهل فقد (ج) قدرته على الحسّ؟...

هو، بالتأكيد، لم يفقد وعيه. كلّ الفحوص الطبّيّة أكَّدَت أنّ دماغه سليم، كذلك جهازه العصبيّ الذي يُفترض فيه أن يَبُثّ تموّجات الألم. ومنحَته الصحوة فرصة لمواجهة مندوبي الصحافة والتلفزيون والإذاعة، فراح يُدلي إليها بالشهادات والتصريحات بحماسة تفوق الوصف.

وكان يروي ما حدث وهو يبتسم، (وهكذا كان حين أخبرني القصّة من «البداية» حتّى النهاية)، وكأنّما مشارط الجرّاحين وإبرهم، كانت

تعمل في جسد آخر خارج عن كيانه. وهذا ما جعله موضوعًا غريبًا ونموذجًا ندر مثيله بين الجرحى والمصابين.

***

وهذا ما رواه حرفيًّا، في إحدى غرف المستشفى، وبعد انقضاء شهرين على الحادث، حين قرّر الطبيب الجرّاح أنّه حان الوقت لتركيب الأنف البلاستيكي، وساعدين آليين، يعينانه على خدمة نفسه والقيام ببعض الأعمال اليدويّة.

كان كلّ مَن حوله قلقًا ومصابًا بذلك الشعور المربك، والذي يتغلغل في أعماق المرء السليم الجسم والأعضاء لدى مواجهته إعاقة الآخرين، فلا يستطيع حيال ما يرى إلّا أن يحس بالذنب ووخز الضمير، تمامًا مثلما يشعر لدى فراق شخص عزيز، وكأنّما هو الصحيح الجسم، والباقي على قيد الحياة، المسؤول الأوّل وسبب العلّة: مات الآخر ليحيا هو.

***

لكن هذا الشعور بالذنب كان عابرًا، إذ إنّ (ج) نقل الجميع إلى جوّ يكاد يتبرقع بالسلوى والمرح، وذلك حين راح يغرف، من قلب المأساة، حكايات مسلّية، تثير الفضول، وتدفع المستمع إلى التعجّب، بل وإلى الخروج عن الصمت حتّى حدود السؤال.

وكان في ذلك كلّه، غير عابئ بالإعاقة، بل يركّز على تلك المناسبة العظيمة، وقد أعطَته فرصة التحدّث إلى الصحف والظهور على

شاشات التلفزيون، وبالتالي فرصة التحوّل إلى شخصيّة مشهورة ذاع صيتها أبعد من حدود القرية.

***

وهذا ما جعل الرجل ينتقل من مناخ المأساة إلى مسرح البطولة، وخصوصًا أنّ زوّار «الجورة» من أيّ صوب أتوا، كانوا يتوقّفون عند أوّل مَن يلتقونه في الطريق ليسألوه:

– أين يقيم مواطنكم (ج) بطل الغارة الجوّيّة؟...

وكانت الأصابع تتّجه إلى مكان واحد، البيت المتواضع، ذي السقف الترابيّ، والمتربّع هانئًا وسط حديقة تحضنه كما تحضن الأم طفلًا عزيزًا.

وكان بعض الغرباء يقصدون ذلك البيت، فإذا وجدوا بابه مفتوحًا، تجرّأوا وطلبوا مقابلة صاحبه، كي ينقلوا إليه عبارات الإعجاب والتهنئة... أمّا إذا صادف أن كانت النوافذ مغلقة، والباب موصدًا، فإنّهم يتابعون سيرهم مكتفين من الزيارة بالتملّي بمشهد البيت من الخارج.

وبعضهم (ويمكن أن يُعتبر هؤلاء محظوظين) كانوا يلتقون (ج) على قارعة الطريق، فيما هو يقوم بنزهته اليوميّة بين طرفَي «الجورة»: «أعمل بنصيحة الطبيب الذي عالجني في بيروت. قال لي بالحرف الواحد: أنت محظوظ، صحّتك عمومًا لم تتأثّر، وعليك أن تمارس رياضة المشي، أفضل رياضة في مثل حالك»...

وعلى قدميه ظلّ يمشي، ويقصد الكروم وبساتين الزيتون والتفّاح ويعمل، بمساعدة يديه الآليّتين، في تشذيب الأغصان وتقليم الشجر،

ونزع الأعشاب المؤذية من بين الزرع. وبما له من عزم وقوّة إرادة، تمكّن من غرس نصبة زيتون جديدة مكان الشجرة المقصوفة.

وأمس، وفيما كان يتفقّد غرسته الطفلة، وينعم بمشاهدة حبّات الزيتون الدسمة متدلّية كالمسابح من أغصان الشجر العتيق، سمع دويًّا أصمّ أذنيه، وشعر في الوقت ذاته، بأنّ يدًا عملاقة، امتدَّت من حيث لا يدري، فاقتلعَته من مكانه، وقذفَت به عدّة أمتار في الفضاء، قبل أن يهوي جسمه (أو ما تبقّى من ذلك الجسم) ويرتطم بالأرض.

***

وهذا هو الرجل، بقايا رجل، محمول في عربة شحن صغيرة، (إذ لا وجود لما يُسمّى «عربة إسعاف» في تلك المنطقة)، متّجهة به إلى المستشفى الذي استقبله في المرّة الأولى. ومثلما حصل في المرّة السابقة يحدث الآن: لم يَغِب (ج) عن وعيه؛ ظلّ ممدّدًا، وفوق شفتيه تتمدّد ابتسامته المألوفة...

***

ملحق:

منذ سنوات، وهذه القصّة مكتوبة ومنسيّة في أحد الملفّات. ولست أدري، الآن، ما الذي جعلني أُخرجها من مخبإها وأقرأها لتلك السيّدة التي عرفَت (ج) منذ طفولته بحكم القربى والجوار. أصغَت السيّدة حتّى النهاية ثمّ قالت معقّبة:

– لا بأس بالقصّة. حاولتِ جهدك أن تصوّري ما حدث، لكن فاتك الجزء الأهمّ.

– ماذا تقصدين؟

سألتها، وقد ثار في صدري فضول جديد، فأجابَت:

– ما سمعته تمامًا، أنّك لم تسجّلي جزءًا هامًّا من حقيقة ما جرى للرجل، وقد فاتك ذكر بطلين، أو بالأصحّ بطلتين من أبطال القصّة.

– لم أفهم قصدك!

قلت لمحدّثتي ثمّ انتظرتها لتتابع روايتها، وهذا ما سمعت:

– «لم يكن (ج) بارًّا بوالدته، وقد ربّته يتيمًا، وأغدَقَت عليه من العطف والدلال ما أفسد طباعه، وحوّله إلى إنسان متجبّر. وانعكس ذلك في أسلوب تعامله معها، وكان يبلغ به أحيانًا حدّ الضرب. نعم، كان يضرب أمّه التي ولدته، فتصرخ وتستغيث، وقد سمعتُها، أكثر من مرّة تدعو الله كي يعاقبه بكسر يديه: «الله يكسّر يديك...» هكذا كانت تقول وهي تبكي. صوتها لا يزال يدوّي في أذني. وقد تحوّل إلى هدير، أين منه هدير الرعد، وذلك عندما تلقّى (ج) الضربة الأولى وبُتر ساعداه.

لست أدري ما إذا كان هو يذكر ذلك. ولنفرض تذكّر، فإنّه لن يصغي، ولن يتعلّم، ولو فعل لما كان في حاجة إلى هذه الضربة الثانية...».

قاطعتها مستفهمة:

– وهل دعَت عليه الوالدة ببتر الساقين أيضًا؟

– لا... هذه المرّة تُطِلّ البطلة الثانية في حياته، أخته سعاد البسيطة التي لم تتزوّج، وقد أنفقَت عمرها في خدمته. وفي الآونة الأخيرة تحوَّلَت إلى عضو يُعوّضه من أعضائه المفقودة. وكان يقابل خدمتها بالشتائم والغضب، وحين تعجز يداه الآليّتان عن بلوغها، كان يركلها بقدميه، ويدوس جسدها بلا رحمة. وتبقى هي صامتة، صمت البهائم العجماء. فهل سمعتها العناية الإلهيّة فسدَّدَت إليه تلك الضربة الأخيرة وبتَرَت ساقيه؟

***

قلت لمحدّثتي بلهجة معترضة على منطقها في تحليل الأمور:

– لكنّ الضربة أتَت من عدوّ عاتٍ يتربّص، منذ سنين، بأهالي الجنوب الآمنين.

وقلت لها:

– يجب أن تتذكَّري، يا سيّدتي، أنّ سلاح الطيران الإسرائيليّ لا يمكن أن يكون حليفًا لتلك الأمّ الطيّبة، وهو، لذلك، لا يوظّف طاقاته لخدمتها، أو في سبيل العدالة الإلهيّة. تذكّري ذلك دائمًا يا سيّدتي...

***

هذا البعد الجديد دفعني إلى قراءة القصّة، حتّى إذا فرغت من ذلك، أعدتها إلى مخبإها الأوّل في الدرج متوخّية، ومع مرور الزمن، أن ألتقي أناسًا أجهلهم لكنّهم عرفوا (ج) أكثر ممّا عرفته أنا، أو ممّا

شهدَت عليه تلك السيّدة؛ وهم لذلك، قد يحملون إضافات جديدة ورؤية مختلفة.

وإذ أُخرجها الآن من ذلك الدرج، فلكي أفتح مجالًا للتواصل مع أولئك المجهولين.

***

وهكذا هي الحكاية. وهكذا كانت تبدأ من نقطة ما، ثمّ تمضي في التشعّب والنموّ، حتّى تجعل كاتبها عاجزًا عن الإحاطة بحدودها.

موت نخلة

كانت جارتي جِوار مصادفة، فهي لم تَختر مقامَها ولا أنا اخترتُ المكان.

منذ سنتين، وهي تغرس في نفسي، من خضرة أماليدها، بذور الأمل. وكلّما انتشر حولي ضباب الغمّ، أرسلَت هي واحدة من سعفاتها الفاتنات وكشحتِ الضباب من عيني.

استمرّ الحوار بيننا منذ أن أقمتُ في هذا المسكن الغريب. أحيانًا كان الحوار صامتًا، لونًا من ألوان التخاطر.

وفي بعض تلك الأحيان، كانت هي تختار الخروج عن الصمت، فتلوّح لي بالسعفات الراقصات على أنغام الرياح، أو تُطلق آهاتها، من خلال جوقة العصافير المتآوية في أعبابها، وتجعلني أُحسّ بأنّ هناك بيت صداقة في الجوار.

***

كنتُ، في بعض الأوقات، أسقط في حالات من الشكّ فأتساءل: هل تشعر النخلة بوجودي؟... وهل أقوى أنا الترابيّة على بلوغ مراتبها السامية؟ وهل، وهذا هو الأهمّ، هل أغرس في كيانها بعضًا من

فرح سماويّ وطمأنينة تُزوّدني بهما منذ بزوغ الفجر وإلى أن يُخيّم الظلام؟...

كنتُ، أحيانًا، أرنو إليها بعينين حاملتين همّ السؤال، فتكتفي بتلويح لطيف يعيدني إلى ذاتي، آمنةً، مطمئنّة.

***

حالنا هذه دامَت سنتين، ثمّ جاء ذلك اليوم، حين هبَّت على المدينة رياح عتيّة، فراحَت تخبط جدران المباني، تعبث بالحدائق وتُغالب الأشجار؛ تغرس في عروقها شتّى ألوان التحدّي، فتنهض للمقاومة.

ونهضَت نخلتي تقاوم هبوب الرياح العاتية. وكنت واقفة خلف الزجاج المقفل أتأمّلها في جهادها ومعاناتها. كان المشهد مثيرًا، لكنّه يحمل بذور القلق: ماذا لو تغلَّبَت عليها الرياح؟

أرسلتُ نظرةً إلى جاراتها الشجيرات اللامباليات: كنّ أدنى من مستوى الريح، يُقِمنَ في الخمول والانتظار، وقد غرق بعضهنَّ في أحلام اليقظة.

وحدها نخلتي السامقة كانت حاملة عبء المقاومة، والدفاع عن الخطوط الأماميّة.

امتلأَتْ نفسي فخرًا بها. وعادَت إليّ حماسة كانت قد فارقتني منذ زمن طويل. وكدتُ أُصفِّق إعجابًا... في الواقع، رفعْت ساعديّ بحركة تلقائيّة، أثارتها فيهما حركة الخارج؛ لكنّ ما حدث في اللحظات التالية، أسقطَني من شاهق تأمّلاتي، وسرق منّي الفرح والحماسة:

قَوِيَتِ الريح فجأة، ارتفعَت سواعد النخلة إلى أقصى مدى تبلّغه في الدفاع والمقاومة. لكنّها في تصعيدها ذاك، سمحَت للرياح بأن تتغلغل في أعبابها، وتُرخي ثقلها على هامَتها، ثمّ تنجح في نهاية الصراع، بإسقاطها.

هوَت، مثلما تهوي سهام النيازك، فأحدثَ ارتطامها بالأرض دويًّا هائلًا، ثمّ هدأ كلّ شيء: حتّى الريح كفَّت عن الهجوم، وساد المكانَ صمتٌ مريب، هو الصمت الذي يعقب الجريمة.

***

سارعتُ أفتح النافذة، لأتملّى من تأمّل المشهد الخارجيّ، وأنا غير مصدّقة أنّ ما أراه قد حدث فعلًا.

كيف هوَت النخلة العتيّة بتلك السهولة؟

ثمّ تابعتُ البحث عن الأسباب، فلاحظتُ جرحًا عميقًا يُطوّق الجذع، ويُكوّن حلقة بينه وبين صفحة التراب؛ واتَّضح لي، في ما بعد، أنّ نخلتي خرَّت صريعة التلوّث الذي يهجم على الطبيعة، متباطئًا، في بعض الأحيان، وسريعًا بسرعة الموت الصاعق في حالات كثيرة. كانت الأنابيب التي تنقل مياه الصرف مهترئة، فسمحَت بتسرّب السموم من فضلات المبيدات، والمواد الكيمائيّة القاتلة.

والنخلة، لانشغالها بالفضاء والأجواء الأرفع من التراب، نسيَت كيانها الأدنى، ولم تحسب أنّ يدًا غرسَتها وتعهَّدَتها، قد ترتدّ عليها تغدُر بها.

***

انقضَت أيّام والنخلة ممدَّدة باستسلام مَن لا حول له، ولم أعد أسمع زقزقة العصافير فوق غصونها.

ثمّ فجأة، وكانت الشمس لم تشرق بعد، سمعتُ جلبة يختلط فيها خبطُ الفؤوس، بحفيف الأوراق والأغصان، وأزيز المنشار. سارعتُ إلى النافذة بقلبٍ واجف، فأبصرتُ جماعة من الناس تعمل على تقاسم جثّة الضحيّة: بعضهم كان يعمل على قطع السّعف، بينما تولّى آخرون عمليّة نشر الجذع وتقطيعه حلقات، قبل أن يتعاون أصحاب السواعد السمراء المفتولة على حمله إلى الشاحنة الرابضة قرب الباب.

***

أقفلتُ النافذة، ثمّ ردَدْتُ الستائر، وحاولتُ العودة إلى الداخل، لاستئناف عملي، وعبثًا حاولت.

كانت تلك الأصداء تتآلف وتتجمّع، ثمّ ترتدّ إليّ، وتخبط جدران الوعي، توقظ فيّ ذلك الشعور بالذنب، تُؤنّبني وتقول:

– وأنتِ لست بريئة. إنّك مثلهم، قتلتِني بالتزامك الصمت.

ثلاث دمعات...

تروي «الميثولوجيا» اليونانيّة أنّه حين طال غياب «أوديسيوس»، بعد حرب «طروادة»، أخذ الرؤساء وكبار القادة يتقرّبون من زوجته «پينيلوپي» بقصد الزواج بها. ولكي تصدّهم، كانت تمهلهم ريثما تنهي حياكة عباءة «لايرتيس» والد زوجها. كلّ ليلة، وعلى مدى ثلاث سنين، كانت تحلّ ليلًا ما حاكته في أثناء النهار. وبقي ذلك سرّها الغامض إلى أن كشفَته وأذاعَته خادماتها. وقد أُنقذَت من الحرج عندما عاد الزوج مع ابنه منتصرين.

كنتُ أعتقد أنّ حكاية «پينيلوپي» وثوبها، أسطورة الوفاء الزوجيّ التي لا مثيل لها. وقد خلّدها «هوميروس» في جملة ما خلَّد من حكايات رائعة في «الإلياذة». ولم يخطر في بالي أنّي سألتقي شبيهة الأسطورة تلك، في زماننا، وأبصرها متجسّدة في صورة امرأة عصريّة...

لم تكن «پينيلوپي» قصّتي، تحوك ثوبًا في انتظار رجوع الزوج من الحرب، بل الذي شاهدته بين يديها «لحاف» مضرَّب تتفنَّن في صنعه الأميركيّات. وفي سبيل المحافظة عليه كتراث فنّي عريق تقام

مباريات تعطى خلالها الجوائز للمتفوّقات، ولا أقول «المتفوّقين»، إذ بقي صنع اللحاف المضرَّب حكرًا على النساء.

وقد أثْقَنَتْ «پينيلوپي» قصّتي، «ليوني»، فنّها ونالَت عليه جوائز تقدير في المعارض المحلّية والوطنيّة. وأتاحَت لي إحدى رحلاتي إلى تلك الجزيرة الرائعة، «جزيرة الأمير إدوار»، أن أحضر معرضًا أُقيم في متحف المدينة، وشاركَت فيه عشرات السيّدات، وحصدَت «ليوني» خلاله أكثر من جائزة، فتكرَّسَت بنتيجة ذلك النجاح، أبرز المحافِظات على هذا التراث...

***

واللحاف المضرّب ليس من التقاليد الأميركيّة الأصل، بل إنّه، بحسب ما تروي الموسوعة البريطانيّة، انتقل إليها مع المهاجرين من الهند وبلدان الشرق الأسط؛ لكنّه تحوّل هناك، وعلى أيدي الفنّانات عاشقات حرفة التطريز، إلى شيء آخر ومختلف. وبقيَت من الماضي، ومن التاريخ العريق، رسوم رافقَت البدايات، أشهرها تصميم «لشجرة الحياة». وقد تفنَّنَت صانعات اللحف في تطريزها، فقدَّمَتها بأشكال وألوان متنوّعة. وكلّ واحدة تجتهد لتتجاوز سابقتها، وتتفوّق عليها.

كانت «ليوني»، حين زرتها آخر مرّة، منهمكة في صنع لحاف جديد، توزَّعَت فوقه تصاميم عديدة لجرة الحياة، وقد تنوَّعَت أشكالها وألوانها إلى درجة تُبرِز تفوّق تلك الفنّانة وخصوبة خيالها.

وفي تلك المرّة، دعَتني «ليوني» إلى مشغلها، وهذا أمر نادر، إذ عهدتُها ترتاح بوحدتها في أثناء العمل... تدخل صومعتها مثلما تدخل دودة القزّ الشرنقة، منكفئة على ذاتها، هاربة من ضجيج الخارج إلى سكينة الداخل.

ولأنّي أقدّر وأفهم معنى عزلة المبدع والفنّان، فقد اعتبرتُ دعوتها تلك لفتة خاصّة، بل تكريمًا لا تجود به على أيّ كان.

لفتَني عدد اللحف الموزّعة فوق الجدران، أو على مراتب خاصّة. إلّا أنّ ما استرعى انتباهي حقًّا، وأثار إعجابي هو الأخير بين يديها، وقد بدأَت عملها فيه قبل ثلاث سنين. سألتها: «هل كان هذا الوقت الطبيعيّ الذي يستغرقه تطريز كلّ لحاف؟»، فلم تردّ عليّ فورًا، وحسبتُها ضنينة بأسرار المهنة، لا تبوح بها للغير. لكنّي تراجعتُ عن ظنوني حين أبصرتُها تغرُز الإبرة في ثنايا القماش، وتعتدل في جلستها كمَن يستعد لإلقاء خطاب.

وبالفعل، جاءني جوابها خطابًا تعليميًّا وكشفًا للسرّ الكامن وراء خصوصيّة ذلك اللحاف، قالت:

– من عادتي أن أفرغ من صنع اللحاف، في خلال شهر، أو بضعة أشهر لا تجاوز الستّة في معظم الأحيان، وذلك حين اختار الغرزة الدقيقة المعقّدة...

وقاطعتُها مستوضحة:

– يعني هذا لحاف خاصّ جدًّا، وقد يكون تحفة تتجاوزين بها كلّ ما قدَّمتِ في السابق.

قلتُ ذلك بعيدًا عن التملّق، إذ كنتُ قد شاهدتُ بعض أعمالها معلّقًا في قاعات متحف المدينة.

فابتسمَت بهدوء وقالت:

– يمكن اعتباره مميّزًا. لكنّ الفنّ ليس همّي في هذه المرّة، ولا تجاوز الذات، قصدي...

– ماذا إذًا؟

– أن يبقى العمل مستمرًّا ولا ينتهي...

وبادرتها من دون أن أخفي عجبي:

– غريب هذا الذي أسمعه منك. المعروف أنّ كلّ مَن يبدأ عملًا يسعى إلى إنهائه.

– هذا يصحّ ويجوز في الحالات العاديّة.

– لم أفهم قصدك!

قلت لها، وقد أخذت درجة الفضول ترتفع، أمام كلامها الغامض... إذًا، هناك حكاية كامنة خلف العمل...

فردَّت وكأنّها كانت تتوقّع تساؤلي:

– نعم. هذا ليس عملًا عاديًّا مثل أعمالي السابقة. لقد كرَّسته، ومنذ الغرزة الأولى، لصديقة مريضة؛ لذا اخترتُ له تصميم «شجرة الحياة».

– أفهم أنّها صديقة عزيزة، ومرضها...

فقاطعَتني قبل أن أُنهي عبارتي:

– خطير... نعم، إنّها تصارع الموت ومنذ ثلاث سنوات.

– وما العلاقة بين حالها، واستمهال النهاية؟... لو كنتُ مكانك، لأنهيته بسرعة، كي يتسنّى لها استخدامه ولو لأمدٍ قصير.

– بل هناك علاقة...

أكَّدَت لي، ثمّ تابعَت:

– إنّ العلاقة كامنة بين كلّ غرزة أغرسها في القماش وكلّ نسمة تتنفّسها فوق سرير مرضها. أعلنتُ لها البدء بالعمل، كوعد، ففرحَت، وعاشَت في الرجاء. ذلك الرجاء الذي لم يعترف به الأطبّاء، إذ أعطوها مهلة ثلاثة أشهر فقط، وها إنّنا نجاوز السنة الثالثة. وفي كلّ يوم، أتّصل بها، وأُخبرها عن تقدّمي في العمل، وتصغي هي إليّ، وتطلب منّي أن أستعجل، لأنّها تنتظر.

نسيتُ أن أُخبرك أنّ الصديقة ليست قريبة منّي، بل تعيش على الشاطئ الغربيّ من كندا. قد بدأَت صداقتنا منذ الطفولة، واستمرَّت خلال مرحلة الفتوّة والشباب ثمّ الدراسة الجامعيّة، إلى أن فرَّقنا الزواج. فبقيتُ أنا في مكاني، بينما رافقَت هي زوجها إلى الغرب لتُقيم في مدينة «ڤانكوڤر»، لكنّنا لم نتوقّف يومًا عن التواصل من خلال الرسائل، والتلفون، والزيارات؛ لقد دأَبتُ على زيارة مدينتها الأولى مرّة في السنة، ترافق فيها الزوج والأولاد. وكنّا نغتنم الزيارة؛ ونجد فيها فرصة جديدة لتثبيت أواصر الصداقة من خلال أولادنا، فتتعمّق العلاقة وتتشابك.

ثمّ توقَّفَت محدّثتي لحظات لتخرج من دُرج قريب حزمة صور فوتوغرافيّة، قدّمتها إليّ، شهادة على ما تقول؛ ورحتُ أتأمَّل شريط الزمن من خلال تلك الصور، ومنذ الطفولة، حتّى المرحلة الحاضرة، وبدا لي وجه تلك الصديقة الغائبة طيّبًا، جميلًا وسابرًا أعماق الحياة. وجه امرأة أنضجها الزمن وتجاربه، من دون أن ينال من روائها وحيويّتها. وسمعت ليوني تعلّق، وهي تلاحظ توقّفي أمام صورة للصديقة وعائلتها:

– كانت تلك قبيل اكتشاف المرض. يعني أنّها ذروة بلوغها مناطق السعادة وتحقيق الذات من خلال الأمومة والعمل.

قلتُ، وأنا أُعيد إليها الصور:

– بعض الناس يتركون بصماتهم في حياتنا، بل يحفرونها حفرًا، ولا نعود ننساهم.

– صحيح...

أكَّدَت ليوني، ثمّ تابعَت وهي تهزّ رأسها:

– صحيح... إنّك تفهمين إذًا؟

– نعم...

أجبتها... وكنتُ أقصد القول إنّي أفهم معنى تلك الصداقة الخاصّة التي تغرس جذورها في أعماقها، وتُعطي الحياة معنًى خاصًّا.

– ولكن...

عدتُ أتابع حواري معها...

– لكن هذا كلّه لا يفسّر السرّ الذي من أجله تُطيلين مدّة العمل، وتؤجّلين موعد النهاية. فما العلاقة بين غرزة التطريز ومرض الصديقة؟

– من حقّك أن تسألي.

قالت ليوني، ثمّ تابعَت:

– عندما سمعت خبر مرضها وخطورته، قطعتُ على نفسي عهدًا بأن أبدأ سباقًا مع الزمن، وباللّغة التي أُجيدها: التطريز. قلت لنفسي: «طالما أنا أعمل، تبقى هي حيّة»... تعرفين قصّة پينيلوپي وثوبها الأسطوريّ؟... قلت: «لماذا لا أقتدي بها؟»... واتّصلتُ بالصديقة، وأخبرتها بأنّي أُعِدّ لها لحافًا خاصًّا كي تستخدمه غطاء لسريرها، ووعدتها بأن يكون أجمل ما صنَعْت. وجاءني صوتها مرحًا مثل زقزقة العصافير، وكأنّما المرض وألمه فارقاها منذ تلك اللحظة: «كم يُفرحني ذلك! سوف أنتظر بفارغ الصبر»...

قلت: «قد يستغرق بعض الوقت، لأنّي أنوي أن أصنع منه تحفة فنّيّة.»

وعلى ذلك ردَّت قائلة: «سوف أنتظر...»

وانتظرَت، ولا تزال. وفات الوقت المحدّد من الأطبّاء. وانقضى العام الأوّل، والثاني، وها نحن في نهاية العام الثالث، وهي تقاوم. وتقاوم بصبر ورجاء. وأنا أتّصل بها، وأزوّدها بأخبار تقدّمي في العمل. وأعلم أنّها ليست غبيّة. وتُدْرِكُ أنّ التأخير مماطلةٌ مقصودة. لعبة أتحدّى بها الفناء، وقد دخلَت هي تلك اللعبة... وربّما في اللاوعي. أنا لا أفهم

أسرار الطبّ، لكنّي أعلم أنّ الأمل يأتي من مناطق مجهولة ومن حيث لم نحسب، وأحيانًا ينبع من الأشياء البسيطة، مثل الصداقة والمحبّة والعمل. وبالتحديد؛ العمل الذي نقدّمه لأجل شخص نحبّه، ويكون فعل حبّ وإخلاص. والحقيقة: أنا لا أفهم أسرار الطبّ، وأكاد أجهل تمامًا ذلك السرّ الذي يربطنا بالحياة، ويجعلنا نرتفع ونرتقي لكي نتغلّب.

***

عند هذا الحدّ توقَّفَت محدّثتي، وكأنّما أطالَت الكلام على حساب العمل، فعادَت إلى إبرتها، وراحَت تغرز قطبًا جديدة فوق صفحة القماش؛ ومع كلّ قطبة، كنتُ أُحسّها، تغرس لصديقتها شجرة أمل. وفيما كنتُ أُتابع حركة يديها، وهي، وبكثير من الرشاقة تطرّز الأشكال والألوان، لفتَني تصميم مختلف عن سائر ما صمَّمَت فوق صفحة اللحاف، وقد تركَته في إحدى الزوايا، أشبه بالتوقيع الذي يسجّله الفنّان لدى فراغه من لوحة رسمَها.

– إنّه توقيعي...

قالت، ردًّا على تساؤلي.

– ولكنّه لا يحمل أحرف اسمكِ!

ابتسمَت تكشح ضباب الشكّ وتابعَت:

– بالطبع لا يحمل حروف اسمي، أنظري جيّدًا، تَرَي ثلاث قطرات متجاورة، هي دمعات ثلاث اخترتُ أن أوقّع بها. وهي رسالتي السرّيّة إليها، ولن أفصح عنها. وإذا لاحظَتها هي، فلن تبوح

بذلك. وهكذا يبقى التوقيع سرًّا بيننا. وكأنّما نتآمر به على الموت، على الفناء.

– ولكنّك تعملين ضدّ الموت، وضدّ النهاية، فلماذا الدموع؟

فردَّت بصوت يخالجه الحزن:

– في مثل هذه الحالة، في وسعنا أن نُرجئ الموت، بالعمل والأمل، ولكن إلى حين...

تحوّلات

إذا قادَتك خطاك إلى شارع «موزار» المتفرّع من شارع «فردان»، في هذا الحيّ الناهض من بيروت، فلا بدّ لك من أن تلاحظ رجلًا صغير القدّ، متوسّط العمر، أشعث الشعر، يجلس عند ركن من الشارع، مديرًا ظهره للمارّة، مستغرقًا بالتحديق في المشهد أمامه.

والمشهد حفرة كبيرة الحجم، مسوّرة بسواتر معدنيّة، تحجب الرؤية عن الأعين الفضوليّة من جهة، وتحمي المارّة، في الشوارع المحيطة بها من جهاتها الأربـع، تحميهم من أذى قد يأتيهم من «ورش» البناء الناشطة في المكان.

***

لكنّ كلامي لا يدور على الورشة، وقد بدأَت منذ ما يقارب السنتين، ولا يزال عمّالها يمعنون في الحفر، نزولًا إلى أعماق لا تحدّ.

لا، سأترك ورشة البناء لأصحابها الناهضين بإعمار بيروت، وأعود إلى صاحبنا الجالس في ركنه، مثل أيّ فيلسوف من عهود غابرة، يتأمّل بصمت وينتظر.

ولو كنت أجهل الرجل، لحسبته من «العواطلجيّة» البطّالين، والتأمّل عندهم هواية لقتل الوقت. أو ربّما حسبته فضوليًّا يعجبه أن يراقب العمران يأتي في أعقاب الهدم والدمار، فيقحم نفسه في المشهد ولو متفرّجًا.

أو ربّما ظننته حارسًا من بعض مَن تجنّدهم «الورش» من حرّاس، مهمّتهم حماية الآلات الثمينة من سطو اللصوص.

***

لكنّ تلك التخمينات تسقط تلقائيًّا بسبب معرفتي بالرجل: إنّه «أبو الحِنّ». وهذا هو اللقب الذي أطلقه عليه الأصدقاء تحبّبًا. فهو، مثل «سميّه» العصفور الصغير، ضئيل القدّ، رشيق الحركة، خفيف النقلة على الأرض.

***

و«أبو الحِنّ» يجلس الآن في الركن، وينتظر.

ماذا ينتظر؟

ليس لديّ جواب أكيد عن مثل هذا السؤال. وأغلب الظنّ أنّ الرجل نفسه يعجز عن الإجابة الوافية في حال وُجّه السؤال إليه، لكنّه باق هنا، جالس في الركن وينتظر.

***

وهكذا كان حين مررت به قبل سنتين من هذا التاريخ.

يومذاك اقتربتُ منه، وسلّمتُ، وطرحتُ عليه سؤالًا أدركتُ للتوّ أنّه كان متسرّعًا، وفي غير أوانه. لقد سألته آنذاك: «ماذا جرى للدكّان؟».

نعم. كان «أبو الجِنّ» جالسًا في الركن ذاته، حيث قام دكّانه – التخشيبة طوال عشرين عامًا.

وأنا لا أعلم الكثير عن ظروف بناء ذلك الدكّان، وهل كان شرعيًّا، أم اعتداء على الأملاك العامّة. لكنّ ما أعرفه بالتأكيد هو أنّه كان يسدّ حاجة ضروريّة للحيّ وسكّانه، إذ يؤمّن لهم، يوميًّا، الفاكهة والخضار الطازجة، ويوفّر عليهم عناء الانتقال إلى الأسواق البعيدة.

ثمّ إنّ الأسعار فيه كانت أرخص منها في أيّ مكان آخر، وذلك بشهادة ربّات البيوت، الحريصات على القرش حرصهنّ على سواد العينين، خصوصًا أنّ الزمن كان زمن حرب، وأبواب الرزق مسدودة، والناس تحاول تدبّر أمورها بالتي هي أحسن.

***

نعم، لهذه الأسباب، وسواها، جاء دكّان «أبو الجِنّ» حلًّا رائعًا لتلك المشاكل اليوميّة التي تقلق ربّات البيوت. وقد تصبح إعاقة للأرباب أيضًا، فيما لو كلّفوا هم بشراء حاجات البيت من السوق بعيدًا عن حيّهم.

وقد صمد الدكّان، على ضعف بنائه، صمد لكثير من الضربات المزلزلة، من قذائف تتفجّر في الجوار، إلى شظايا تخترق منه الزوايا، أو تستقرّ في الصناديق المتلعة بمحتواها.

ومثلها بقي صاحبها صامدًا لامتحان الحرب، كما صمد من قبل حيال الفقر، أيّام كان يُقيم مع زوجته وأولادهما في «أوتيل الزرزور» وذلك أواخر الخمسينيات. آنذاك كانت الفاقة هي الحرب اليوميّة المتوارية خلف الباب.

وكلمة «أوتيل» هنا، تأتي من قبيل تسمية الشيء باسم ضدّه، وقد يكون نعتًا آخر للمكان أطلقه أحد الظرفاء في لحظة عبث، إذ لم يكن «الأوتيل» سوى حوش، بلا شكل محدّد، سقف بالقرميد الأحمر، ويؤوي بين جدرانه المتهالكة بضع أسر، اتَّفقَت على تقاسم مساحته في ما بينها، كما اتَّفَقَت على العمل المشترك، محدّدة يومًا للغسل، وآخر للخبز أو الطبخ. وكان جدار «الأوتيل» ملاصقًا جدار البناء الذي نقطنه من جهته الشماليّة، لكنّ المسافة الاقتصاديّة التي تفصل بين المكانين كانت شاسعة، إنّما بقيَت تجمعهما وحدة إنسانيّة هي ألفة الجوار.

وكم مرّة نهضنا على إيقاع خبط العجين، أو رقّ الخبز، وكم من مرّة تسلّل الدخّان البريء عبر نوافذ بيتنا من موقد يحمل فوق حدباته الصاج المعدنيّ، راضخًا للنار تحمي جوفه، وللأنامل الرشيقة تمدّ العجين المرقوق فوق سطحه!...

***

وفيما النساء ينصرفن إلى متابعة تلك الأعمال الأليفة، كان الرجال ينطلقون لملاحقة أعمالهم في شتّى أنحاء المدينة.

ومثلهم كان «أبو الجِنّ» يخرج يوميًّا إلى سوق «الحسبة»، حيث يقيم تجّار الجملة، ويشكّلون جسر العبور بين الفلّاحين وخيراتهم الواردة على المدينة من السهول والضواحي، وبين الأيدي المنتظرة وصولها بشوق ولهفة، كي تتلقّفها، وتقوم بتوزيعها.

ويمتدّ تاريخ «البداية» ومعرفتنا بالرجل ومحيطه، إلى ما قبل عهد الدكّان... أيّ إلى حين كان يملك عربة خشبيّة يرصف فوقها الصناديق، طافحة بمحتوياتها من شتّى الأشكال والألوان.

***

ثمّ جاء يوم لم تعد فيه العربة قادرة على سدّ حاجة الزبائن، وكان عددهم قد تضاعف، وحتّى تجاوز حدود الحيّ الصغير المغلق إلى أحياء مجاورة. عندها قرّر الرجل أن يبني في ذلك الركن القريب من سكنه، تخشيبة متواضعة، ملأها بالرفوف ونضَّد فوقها صناديق خشبيّة تحوي البضاعة، متّبعًا نظامًا تكوّن لديه نتيجة المراس والخبرة. ثمّ جعل للتخشيبة جدرانًا وسقفًا فصارَت شبيهة بأيّ دكّان.

وهكذا اختفَت العربة من حياة «أبو الجِنّ» وعائلته. وافتقدنا حركة الأولاد فجر كلّ يوم، يتسابقون إلى مساعدة الوالد في رصّ الصناديق وترتيبها بنشاط ملحوظ ومرح ظاهر.

ثلاثون سنة انقضَت، و«أبو الحِنّ» رابض في هذه البقعة من المدينة، لا يغادرها إلّا لشراء البضاعة صباح كلّ يوم، ثمّ يبقى ملتصقًا بجدرانها إلى أن يعمّ الظلام، ولا يعود في وسعه أن يميّز بين حبّة البندورة و«كوز الرمّان». عندها، فقط، يردّ دفَّتَي الخشب ويربطهما بجنزير من حديد، ينتهي بقفل محكم، ثمّ يمضي ليرتاح في أجواء عائلته.

***

كانت العائلة تنمو، فصار له من «زينة الحياة الدنيا» سبعة أولاد. سبعة، ما شاء الله!... يُعيلهم ذلك الدكّان، والبركة بين يدَي صاحبه. وهم يرفلون بصحّة جيّدة، ويذهبون يوميًّا إلى المدرسة الحكوميّة، ويجتهدون في دروسهم، مثلما يجتهد الوالد في عمله.

وكانت «أمّ الحِنّ» المجتهدة الأولى، فهي لم تكتفِ بتوزيع عمرها بين الحمل والإنجاب والإرضاع، بل تعلَّمَت كيف توفّر البقايا الكاسدة من خضار وفاكهة، غير صالحة للبيع، فتحوّلها إلى مطبخها، لتصنع منها أطباقًا شهيّة مغذّية، أو تحفظها مخلّلة، مقدَّدة أو مكبوسة. أمّا الثمار، فتتحوّل بين يديها إلى مربّى له مذاق العسل.

***

وإذا اتّفق لأحدهم أن يسأل «أبو الحِنّ» عن الأحوال، كان الرجل ينكّس رأسه، بخجل، ويردّ بصوت منخفض:

– الحمد لله... من نعم الله، بألف خير.

لم أسمعه يومًا يشكو أو يتذمّر، أو أنّ وقته لم يكن يسمح بذلك!...

– الحمد لله على نعمه.

***

ولأنّي كنت مهتمّة بأحوال الأولاد في المدرسة. فقد كان يوافيني، من حين إلى آخر، بتقارير تعلن تقدّمهم وتبرز نجاحهم. وكان يضيف إلى تلك التقارير شكره لله لأنّ أولاده لم يلحقوا بالمقاتلين، ولم ينضمّوا إلى الأحزاب والميليشيات.

– الحمد لله في كلّ حين.

***

وحين أنهى الكبار دراستهم الثانويّة، وبقيَت الحرب رافعة أعلامها، رأى الأب المسؤول أنّ الهجرة، إلى حين، قد تكون الباب الأفضل لمستقبل الأولاد، فالعديد من رفاقهم هاجروا، ودبّروا أشغالًا في الخارج، وما همّ ما تكون تلك الأعمال، ما دامَت تُبعد الواحد منهم عن الحرب وويلاتها.

هكذا كان الرجل يُعلّل أسباب هجرتهم، ويتقبّلها على أنّها الأمر الطبيعيّ، بل القدر المحتوم.

ومع أنّ بُعد الأولاد قاسٍ على قلوب الأمّهات والآباء، فإنّه يصبح حالة إيجابيّة في أزمنة الفاقة والحروب.

لكنّ حال الرجل لم تتحسّن ماليًّا بعد هجرة أربعة من الأولاد. فمثلما هبط عدد أفراد العائلة، كذلك أصاب النقص عدد الزبائن

في الحيّ: فالغالبيّة منهم، والتي صمدَت خلال السنوات الأولى من الحرب، لم تعُد تقوى على تدبير أمورها الماديّة، وحين فُتح لها باب الخروج، حملَت الأولاد وأمتعتهم ورحَلَت.

***

وبقي الدكّان مرساة الأمان بالنسبة إلى الرجل ومَن لم يغادر المكان؛ يُبكّر إليه في الصباح ولا يغادره إلّا بعد حلول الظلام. ولأنّ اهتمامي بالأولاد لم يفتر، فقد ظلّ الرجل يوافيني بأخبار تقدّمهم في مهاجرهم. في بعض الأحيان، كان يحمل إليّ تقارير تشهد على نجاحهم ومدى طموحهم.

***

وإن أَنْسَ، فلن أنسى ذلك اليوم، حين اشتدّ القصف منذ طلوع الفجر، واحتُجِزنا في الملاجئ والزوايا التي نظنّها آمنة. وكنتُ في ركن متوارٍ من البيت، ومعي أفراد العائلة، حين سمعنا طرقًا متردّدًا على الباب. هرعتُ لأفتح وأنا أحسب الطارق واحدًا من سكّان البناية في الطوابق العليا، وهو يطلب اللجوء معنا، في الطابق الأوّل، وهذا غالبًا ما يحصل في إبّان القصف... لكنّي فوجئتُ حين أبصرتُ «أبو الحِنّ»، حاسر الرأس، مشعّث الشعر، شاحب الوجه، وكان يحمل في كلتا يديه أكياسًا بلاستيكيّة ملأى بشتّى أصناف الخضار والفواكه:

– لم أخرج اليوم إلى السوق، وهذه من بعض فضلات الأمس، لكنّها أفضل من لا شيء، وقد تسدّ بعض الحاجة ريثما يهدأ القصف.

كنتُ أصغي إليه غير مصدّقة ما أسمع وما أرى.

كيف جرؤ الرجل على مغادرة بيته في مثل هذا الوقت؟ وكيف يجازف بحياته من أجل بعض الخضار؟ وهي ليست الحاجة الماسّة التي تدفع صاحبها إلى ركوب متن مغامرة من هذا النوع.

ثمّ سمعته يتابع بصوت منخفض، وكأنّه خجل ممّا سيعلن:

– لا أريد ثمنًا لهذه البضاعة... إنّها فضلات، ولا تستحق أيّ ثمن.

***

دعوته لكي يستريح، إلّا أنّه رفض حازمًا:

– لا... سأعود قبل أن تبدأ الزخّات الأقوى.

وكان يقصد اشتداد القصف، وقد استعار لغّة الطبيعة والأحوال الجوّيّة ليصف حالة خارقة لكلّ طبيعة. وقبل أن أثنيه عن عزمه، كان قد اختفى عن نظري وسمعي.

***

بالطبع لم أُحاول أن أنقده ثمنًا لتلك الهديّة: فأيّ ثمن يوازيها؟ أيّ مال يعادل تلك التضحية ومجازفة الرجل بحياته؟...

وكما أنّ لكل شيء نهاية، فقد جاءت نهاية الحرب، واستبشر الناس خيرًا، وضحك دكّان «أبو الحِنّ» من جديد، وهو يعرض شتّى ألوان الخضار الطازجة، ودبّت حيويّة جديدة في ملامح الرجل كما في الحيّ، وعادَت ربّات البيوت يلتقين قرب تلك الزاوية الأنيسة، وفيما

هنّ يختَرنَ ما يحتجنَ إليه من البضاعة المعروضة، يتبادلنَ الأخبار والحكايات.

***

دامَت تلك الحال بضعة أيّام فقط، ثمّ تبدّل كلّ شيء. فقد غزَت الحيّ آلات عملاقة من تلك التي تستخدم في حفر الأرض، وجرف التراب والحصى، ورفع الصخور. ولم يشكّ أحد في أنّ البورة الواسعة الشاسعة، وقد حوّلتها الحرب والتسيّب إلى «مكبّ» للنفايات... لم يشكّ أحد في أنّها الجهة التي يقصدها ذلك الجيش الجرّار.

ومثلما جُرِفَت النفايات أوّلًا، وأُزيلَت آثارها، قبل الولوج إلى أعماق الأرض، كذلك أُزيل دكّان «أبو الجِنّ» واختفَت آثاره. وقد تمّ ذلك ذات عشيّة، بعدما فرغ الرجل من عمله، وأوى إلى بيته يرتاح.

ومن هنا كانت الصدمة القويّة في صباح اليوم التالي. فأصحاب الورشة غرباء عن الحيّ، اشتروا الأرض، ووضعوا خطّة البناء، وباشروا التنفيذ. وكان آخر همومهم أن يتوقّفوا عند تفصيل صغير مثل دكّان الزاوية، وعلاقة «أبو الجِنّ» بسكّان الحيّ.

ضربة واحدة كانت كافية لتبدّل معالم المكان.

***

يروي الذين شاهدوا الرجل، في صبيحة اليوم التالي، أنّه ظلّ ساعات مسمّرًا في مكانه، يحدّق إلى الثغرة المنفتحة أمامه؛ وفي تأمّله وتحديقه، كان يسجّل شهادته على تحوّلات المكان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وكانوا يتمتمون

كان يدفعني إلى زيارتها ذلك الشوق الملتهب في أحشائي، والعشق الذي يملأ قلبي. رجعتُ إليها من غياب سنين حسبتُها دهورًا:

– كم اشتقتُك!...

قلتُ، وأنا أُطبِق ذراعيّ حول جسدها الدافئ الحنون:

– كم حَلمْتُ بك!؟... وكنتِ النور في دروبي المظلمة، والنبض في عروقي الجافّة، وتلك اللهبة القدسيّة تحفظ كياني. وكنتِ...

عند هذا الحدّ توقَّفت، إذ لم أسمع منها كلمة، ولا أبدَت ردّة فعل تُشير إلى تبلّغها الرسالة.

***

عدتُ أغرق في الصمت، وأنا أُتابع سيري إلى داري. والدار بدَت عاتبة عليّ، وغاضبة؛ ولمحتُ غرسات الياسمين المعرّشة عند مدخلها، وقد يَبِسَت:

– لكنّي رجعت.

قلتُ لها ثمّ تابعت:

– أرجوكِ. اقبليني.

***

حين صرتُ في الداخل، توجَّهتُ توًّا إلى غرفة النوم، وارتميتُ، مرهقة فوق سريري، وشعرتُ به يجافي، يرفُسني، بدلًا من أن يحتضن كياني المعذّب! وطار النعاس من عيني.

قلتُ: أسير إلى وسط المدينة الخربة.

هناك كانت الطرق ركامًا، خاليةً من الحركة، ولم أجد هناك إنسانًا واحدًا أُلقي عليه السلام. وأنا تائقة إلى الحوار مع أيّ عابر سبيل، أيّ شخص يتوقّف ويُصغي إليّ. لكنّ هذا الإنسان لم يأتِ.

خرجتُ من بين الردم والخرائب واتَّجهتُ إلى الحركة، إلى الشوارع الآهلة بالناس، وبالعربات... وحين أُنهكَت قواي من التجوال، قرّرتُ العودة إلى البيت.

وفيما كنتُ أسير، تابعتُ بحثي عمَّن يُمكنه الإصغاء إليّ. لكنّي عبثًا بحثت...

***

في ملاحظة تالية، شاهدتُ الناس لدى مرورهم بي، يتكلّمون. شفاههم تتحرّك مثلما تفعل الشفاه لدى إطلاق الكلام أو الصراخ. لكنّه ظلّ كلامًا بلا صوت أو صدى، كلامًا صامتًا، غامضًا...

فكّرت في أنّ تلك قد تكون حالة عابرة، واجهتني بالمصادفة مع بعض الناس. لكنّ الأشخاص الذين التقيتهم في ما بعد، كانوا جميعًا متشابهين في سلوكهم الغريب: يمشون، نظرهم في الأرض، أكتافهم محنيّة، رؤوسهم منكّسة، ويُتمتمون...

تمنّيت، في تلك اللحظة، لو كان في وسعي أن أستوقف واحدًا منهم، وأطلبَ منه أن يشرح لي معنى تلك الظاهرة، ويُخبرني عمّا جرى للناس. لكنّ أحدًا من المارّة لم يستجب لطلبي. كانوا يهرولون بسرعة، ويُتمتمون.

***

في بعض الطريق، شعرتُ بالتعب بسبب حرارة الجوّ وطول المسافة، فقرّرت أن أستقلّ سيّارة تاكسي، وأستريح.

حال دخولي السيّارة بادرتُ السائق بتحيّة لم يكترث ليردّ عليها.

تأمّلتُ الناحية الجانبيّة من وجهه فبدا لي أنّه يحرّك شفتيه وكأنّه يتحدّث إلى أحد الناس، إنّما بصوت غير مسموع. قلت: السائق – مثله مثل سواه – يُتمتم، فلماذا لا أغتنم هذه الفرصة الفريدة وأسأله عن السرّ، وقد أفهم منه كيف بدأت هذه الظاهرة وما هو معناها؟...

– لماذا الناس يُتمتمون؟...

هكذا أطلقتُ سؤالي، مباشرًا، وفجًّا.

فلم يردّ، مع أنّ شفتيه تابعتا تحرّكهما.

احترمتُ إرادته، ولجأت بدوري إلى الصمت، معتمدةً على الصبر، الذي هو مفتاح الفرج:

– أجل... لا بدّ من أن يأتيَ الفرج...

سمعتُني أردّد بصوت منخفض، لكنّه مسموع.

فانتفض السائق، وكأنّما كلماتي سلك مكهرب لامس عصبَه الحسّاس. التفتَ إليّ، وقد جحظَت عيناه وتقلَّصَت سحنته وقال بحدّة:

– أيّ فرج، يا ستّ؟... شو حضرتك غريبة عن أورشليم؟...

وتأتأتُ اعتراضي:

– لكن... هذه ليست أورشليم.

– بالضبط، تعرفين إذًا أين أنتِ.

– نعم... نعم، لكنّها مدينتي. غبتُ عنها بعض الوقت وتبقى مدينتي. وها إنّني قد عدتُ.

– ها! ها!... الآن عرفتُ سبب جهلكِ؛ إنّه الغياب. ولن تفهمي مطلقًا ما الذي جرى في أثناء غيابك.

غمرني فرح عظيم لأنّ الرجل تابع حواره، وإن بلهجة التأنيب، فاغتنمتها فرصة لأطرح عليه سؤالي المؤجّل:

– لماذا الناس لا ينطقون؟ أبصرهم يُحرّكون شفاهم، ويتمتمون، لكنّ الصوت لا يصل.

قهقه السائق، وهو يحوّل إليّ هذه المرّة نظرة ساخرة:

– الخطوط مقطوعة. أَوَلَـمْ تسمعي؟... خطوط التلفون السلكي واللاسلكي، حبال الهواء، أسلاك الكهرباء، كلّ محاولات الوصل تقطَّعَت...

– والحديث المباشر؟...

قاطعته بالسؤال، فردّ فورًا:

– كلّ حوار. كلّ حديث.

– ولكنّك...

فقاطعني:

– أجل تريدين القول إنّي أُحاورك. داخل السيّارة فقط. وحين أخرج وأمشي بينهم، تصبح حالي مثل حالهم.

– يعني، تبدأ الحوار مع الذات.

– سمِّه ما شئتِ، هكذا هي حالنا.

تلفَّظ السائق بهذه العبارة الأخيرة وصمتَ، وعدتُ أُبصر، من الجهة الجانبيّة لوجهه، شفتيه تُتمتمان.

كانت لديّ أسئلة كثيرة أودّ أن أطرحها عليه، هو الإنسان الوحيد الناطق بصوت مسموع، لكنّ الفرصة ضاعَت من يدي، مع عودته إلى الاستغراق في التمتمة، وبلوغنا بوّابة الدار.

***

أذكر أنّ ذلك حدث يوم وصولي إلى المدينة من غياب سنين، وبقيتُ أُتابع البحث لأعرف أسباب تلك الظاهرة، لكنّ أحدًا لم يُضف كلمة إلى ما سمعته من السائق في تلك الجولة الأولى في شوارع المدينة.

ومنذ حين، بدأتُ أُلاحظ مع طول الإقامة، وانكفاء الحوار على كلّ المستويات، أنّي أخطو، كلّ يوم، خطوة جديدة في اتجاه الجماعة.

وهذا الصباح بالذات، حدث ما كنت أتوقّعه وأخشاه؛ ففيما كنتُ واقفة أمام المرآة، أُسرِّح شعري، وأُعِدُّ نفسي للخروج، أبصرتُ شفتيَّ تتحرّكان وكأنّهما في أوج الحماسة الخطابيّة، من دون أن يصدر عنهما أيُّ صوت مسموع. كنتُ قادرة على تحديد ما يجري بالنظر فقط. وتخيَّلتُ الحوار عنيفًا، حاميًا، بسبب سرعة الذبذبات، وخفت...

نعم، أعترف بأنّ الذعر استولى عليّ:

– ماذا؟...

سألتُ عينيَّ المحدّقتين إليّ، فأجابتا:

– ماذا؟! وأنتِ أيضًا، بدأتِ تُتمتمين؟...

وبالطبع، لم أتلقَّ عن سؤالي جوابًا. وتأكَّدْتُ أنّ ما يحدث حقيقيّ. كانت شفتاي وحدهما تُتمتمان، فلا أسمع القول، ولا أفهم المعاني...

الأرض المستحيلة

كنتُ أُقدّر أنّ نادر سيكون هناك، بين أفراد العائلة، يتقبّل التعازي بوفاة أخيه الأكبر منه.

كنتُ أعلم عليم اليقين أنّه سيأتي. لن تمنعه من الحضور تهديدات سابقة، من شتّى الجهات، ولن يمنعه «الحزام الأمنيّ» الجديد، الملتفّ مثل حبل المشنقة حول عنق «الجنوب»، والذي يُشكّل، بالنسبة إلى جورة السنديان، طوق الاختناق الأخير.

كان هناك موت. واجب يدعوه إلى الحضور، وهو، كما عرفته دائمًا، لا يتخلّف عن القيام بالواجب.

***

استقبلني، مثلما كان يستقبل عشرات الأصدقاء والصديقات، وقد توافدوا، في ذلك النهار، كي يقدّموا واجب التعزية. «لم يعد يجمعنا بهم سوى الموت»، عبارة تركها شاعر حزين في مسمعي.

تلفَّتُّ حولي، أتأمّلهم: لقد جاؤوا، من شتّى المجالات والأزمنة، يحملون وجوهًا كواها الحزن، وترك فيها اليأس بصماته. وها هم

يلتقون؛ بعد غياب، يلتقون للمشاركة في تشييع واحد منهم. وكان نادر يقف في المقدّمة.

***

لم يسمح لي الوقت، ولا المناسبة، بالتملّي من طلعته. ولكنّي، باللمحة الخاطفة، تمكّنتُ من أن أُلاحظ بأنّه لا يزال يحتفظ بوسامته وأناقته الأرستقراطيّة. نظرة شاملة، ارتدَّت إليّ سريعًا، تؤكّد لي أنّ الصفات المقترنة بشخصيّة نادر لا تزال على حالها: وقفته الواثقة، انتصاب قامته الربعة، ووسامة وجهه... لقد وهبَته الطبيعة نصيبًا سخيًّا من الأوصاف الجذّابة، والتي لم يقوَ على دحرها مرور الزمن وتقلّب الأحوال. وحين التقَت نظراتنا، حدث ذلك على عجل، وبين النظرة والنظرة، كانت ترتفع أزمنة، وتقف شعوب وقبائل. لكنّ لمعة البرق كانت هناك، مختبئة، كامنة، لم يُطفئها مرور الأيّام.

سحبتُ يدي من يده بسرعة، وأنا أُتمتم الكلام الذي يُقال في تلك المناسبات؛ ثمّ تابعتُ طريقي، ودلفتُ إلى قاعة النساء، حيث جلست زوجته، وشقيقته وأرملة أخيه؛ وكان لقائي بهنّ حافلًا بالعواطف، والدموع، وبكلّ ما لم نتوصّل إلى قوله في خلال ثلاثين سنة من الشتات.

ثمّ دخلَت تلك الصبيّة، ابنته، فسلَّمَت عليّ بحرارة، ودعَتني كي أُرافقها إلى غرفة جانبيّة، حيث ينام طفلها المولود حديثًا. كانت تريدني أن أراه، وأسرَّت إليّ، بأنّها تتابع نشاطي العلميّ ويُعجبها خروجي على مألوف الحياة في «الجورة...».

قالت إنّها، قبل الزواج، كانت ستختار طريقي. ابتسمتُ كي أُطمئنها إلى حسن اختيارها، وقلتُ لها: إنّ هذا الطفل يساوي طموح الكون، وإنّه لا شيء يعادل، في قيمته، ولادة طفل. قالت موافقة: معكِ حقّ. ثمّ حملَت الطفل، ووضعَته بين ذراعيّ:

– كي تتأمّليه من قرب. قالَت.

لستُ أدري ما الذي جرى بعد ذلك: فقد كنت جالسة في مقعدي، والطفل بين ذراعَيّ، وجهه يتأمّلني، ويُزوّي ما بين عينيه ليُحسن التحديق، وفجأة تبدّل كلّ شيء، وشعرتُ أنّ تلك الغرفة الصغيرة تتحوّل إلى مركبة زمنيّة، تتحرّك... ترتجّ قوائمها، مثل ارتجاج أيّة مركبة تزمع الإقلاع. ثمّ... ها هي تقلع، وتحلّق بعيدًا... بعيدًا خارج المكان و... الزمان!

***

عدتُ أبصره قادمًا من آخر «الزاروب»، يمتطي حصانه المصنوع من قصب، ويُطلق زمّوره بمرح: توت... توت. كان نادر ما يزال طفلًا، وكانت تلك لعبته المفضّلة: الفروسيّة، وقد عيّنوه باكرًا، زعيم «عصابة» الصغار، وكان مرجعها في أوقات الضيق. وأسمع صوت أمّه، يناديه من فوق شرفة دارهم المتفرّدة بأناقتها، وفخامة عمارتها: سطحها قرميد، وواجهاتها قناطر مزخرفة، ومعرَّشة بخمائل الياسمين والورد الجوريّ:

– إطلع عالبيت، يا نادر، كفاك شيطنة، يا ماما...

– طالع، بعد شوَي يا ماما...

كانت تناديه: ماما. ويردّ عليها بمثل ندائها. وهي سيّدة من خارج الجورة، ولهجتها تختلف عن لهجة سواها من الأمّهات.

حين قدمَت، لتشغل منصب معلّمة في المدرسة الرسميّة، لم تكن هناك مثيلة لها بين الصبايا، وسرعان ما شدَّت إليها الأنظار، وحام حولها شباب «الجورة» مثلما يحوم النحل حول قالب حلوى، لكنّها اختارَت فرّاج سامر، هكذا تشهد أم هاني.

وتزوَّجته، ورُزقا البنين والبنات، وكان نادر، وهو الرقم الثاني في العائلة، في مثل عمرنا؛ وقد اعتاد الخروج من الدار العامرة فوق التلّة، كي يلحق بالشلّة، ويسلك سلوكها. وعين أمّه دائمًا تراقبه، ولا ترضى عنه في غالب الأوقات، لكنّ الولد ولد، ولا يعرف التفريق بين الطبقات.

***

وكنّا، نحن، رفاقه الآخرين، نُقيم في بيوت متواضعة، مبنيّة من حجارة غير منحوتة، سطوحها من تراب، وتربط ساكنيها مباشرة، بالطبيعة، وتقلّباتها. بينما بُني بيت فرّاج سامر من حجارة مقصَّبة. بل منحوتة، رفعها أمهر البنّائين في المنطقة.

كان نادر يتسلّل من خلال سياج الحديقة، ويخرج كي ينضمّ إلى حلقتنا. وكان يأتي معه، ذلك الغموض الذي يُحيط عادة، بالأشخاص المختلفين. وكان هو مختلفًا حقًّا: بمظهره الناعم المترف. بثيابه الأنيقة، ونعومة يديه.

صحيح أنّه كان يمارس ألعابنا، ويصنع حصانه القصبيّ بيديه، لكنّه لم يكن يخرج، مثلما نفعل نحن، في مواسم الغرس والقطاف... نخرج إلى الحقول والكروم، لا بغاية التنزّه، بل لمساعدة الأهل في الأشغال القاسية. ولولا رأفة الأهل، وعطفهم، لكان بوسعي أن أدعوها «الأشغال الشاقّة»، نسبة إلى ضعف أجسامنا، وطراوة سنواتنا وهي تكاد تُحصى على أصابع اليد الواحدة في بعض الحالات.

كنّا نشتاق قدوم نادر حاملًا إلينا أطايب من صنع أمّه، أو حكايات غريبة على عالمنا، فنُجلسه وسط الحلقة، ثمّ نُطوّقه، بأجسامنا، والأسئلة.

وكان ذلك يُفرحه، ويُنسيه، في بعض الأحيان، أن يعود باكرًا إلى البيت، مصغيًا لوصيّة أمّه.

***

لماذا تلتصق بالذاكرة، صورته تلك، وهو مُقبلٌ من آخر «الزاروب» ممتطيًا حصانه القصب، والذي تحوّل في مطلع الشباب، إلى حصان حقيقيّ وأصيل، اشتراه له والده، ليجعله أشهر فرسان المنطقة؟

في مرّة تالية، اقترب منّي، متابعًا تزميره: توت... توت. وحين بات بمحاذاتي، شدّني من يدي، وأردفني خلفه، على متن «حصانه» ثمّ راح يعدو. وبقدر ما كنتُ فخورة بذلك الاختيار، فقد خالجني شعور آخر مزدوج، اختلط فيه الخوف من تأنيب الوالدين، والخجل من نظرات الرفيقات؛ وكنتُ أشعر، في قرارة نفسي، بأنّي أثرتُ غيرتهنَّ،

وكلّ واحدة، واقفة هناك، تنتظر أن تكون هي مَن يختارها «الفارس» الجريء. وراح نادر ينهر «الحصان»، ويجري، وقلبي ينتفخ فرحًا وفخرًا، حتّى كاد ينفجر، ولا يتوقّف عند حدّ. في يوم آخر، أطلَّ نادر راجلًا. كان يرتدي سروالًا قصيرًا وفوقه قميص أبيض مهفهف، مميّز، عن لباس سائر الرفاق... اقترب منّي وهمس في أذني قائلًا:

– هربتُ من البيت. تريدني الماما أن أقصّ شعري، وأنا أُحبّه طويلًا.

قلتُ له:

– أمّا أنا، فأُحبّ شعري قصيرًا. لا أطيق الضفائر مثل غيري من البنات.

قال:

– تخشين أن يشدّك بها الصبيان. هذا هو السبب أم...

– لم يخطر ذلك في بالي... لكن أنت، ماذا تريد من الشعر الطويل؟

– أن أكون مختلفًا.

قال وهو يشدّني من يدي كي نلحق بالرفاق.

***

وها هو يُطلّ عليّ من جديد، ويترك قاعة الاستقبال... أبصرني، والطفل في حضني، وابتسم. أشرقتِ الابتسامة من عينيه، ثمّ راحَت تنتشر بين ثنايا وجهه. سحبتُ نظراتي من عينيه، وعدتُ إلى الطفل وأمّه، وكنتُ من خلالهما، أقرأ بعض مسار حياته... بعض ما جرى في خلال غيابي، والجانب الذي لم يكن لي نصيب المشاركة فيه.

وأقرأ، في عينَي الطفل وأمّه ما كُتب خلال الثلاثين سنة الماضية على افتراقنا.

وأبصرتُه، بعد وقفة قصيرة عند العتبة، أبصرتُه يتقدّم، بخطوات ثابتة، واثقة، ويغرس قامته أمامي: عاليًا، صلبًا، ممتلئًا حبًّا وإخلاصًا.

لبثتُ جالسة في مقعدي، وكان هو في المواجهة، وهذا ما أعطاني فرصة تأمّله، بسرعة، وشمول، في الحاضر، والتحوّلات. وحين ارتفعَت نظراتي إلى وجهه من جديد، كانت ابتسامة عذبة، وساخرة قليلًا، ترتسم، ثمّ تنتشر، مثل شعاعات شمس ضئيلة وخجول، فوق خلايا وجهه، كما في أعماق عينيه. وكانت، تلك الشعاعات، تتسرّب بين ثنايا رسمَتها الأيّام، وأزمنة البعد، وتشبه إلى حدّ كبير، صفحة الأرض، وقد شقَّقتها يدُ الحرث، وتركَت ثناياها تتعانق بحنان.

لماذا يبدو لي وجهه الآن، جزءًا من تلك الأرض السخيّة أكثر من أيّ وقت مضى؟... هل لأنّ الأرض صارت مستحيلة؟ ولأنّه، هو، اختارها على كلّ مغريات الكون؟

لم يكن المجال يسمح بطرح تلك الأسئلة المختلجة في الأعماق. وكان صوته هامسًا، يُلحّ عليّ لمعرفة أخباري:

– أخبارك الخاصّة، والحاضرة، الصحّة... النجاح، والسعادة.

كان يُلحّ ليعرف تلك الواجهة الخفّيّة عنه: وهل أنا سعيدة باختياري أن أبقى وحيدة؟ وهل، بعدما انتزعتُ نفسي من أحضان «الجورة»، هل نجحتُ في تحقيق سعادتي الذاتيّة؟ وإلى أيّ حدّ؟...

– نعم، إلى أيّ حدّ؟...

ابتسمتُ ابتسامة غامضة، تحمل شتّى المعاني، وبوسعه أن يُفسّرها مثلما يريد. وأتبعتُها بالشكر لله...

– وراضية؟... وهل حقّقتِ طموحك مثلما كنتِ تحلمين؟... وصرتِ العالمة الشهيرة؟

– الآن، يا نادر؟ وفي هذه اللحظات الحرجة، وابنتك تراقب، وتُنصت للحوار، والطفل «يُكاغي»، وزوجتك تنتظر... والضيوف والمعزّون؟

– الآن، نعم. الزمن ينزلق مثل الزئبق، ويهرب من بين أصابعي. والزمن يطير. وأنتِ، بعد قليل، تعودين إلى الهرب من جديد.

كرّرتُ عبارة الشكر، ثمّ نهضتُ، فأعدتُ الطفل إلى أمّه، وتوجّهتُ إلى القاعة. هربت.

***

ولماذا هربت منه، في ذلك الزمان البعيد، حين جاءني، ممتطيًا حصانه الحقيقيّ، وطلب منّي أن أُرافقه، مثلما كنّا نفعل في أيّام الطفولة، وحين كان يأتيني من آخر «الزاروب» فوق حصانه القصب، ويُطلق زمّوره باعتداد:

– توت... توت...

شاهدَتْهُ، في تلك الأمسية، جارتنا أم هاني، العين الساهرة لرصد الأحداث في «جورة السنديان»، وشهدَت في ما بعد، وهي تروي

لوالدتي، بأنّه كان يطوف حول البيت، وعينه على النوافذ المغلقة، وكان يمتطي ظهر حصانه الأصيل.

وبعدها، دأَب على الحضور، كلّ مساء، وكان يعلم علم اليقين، أنّي غادرتُ «الجورة»، محمولة على جناحَي طموح لا يعرف حدًّا.

وجاءني يومًا إلى المعهد الداخليّ، حيث كنتُ أُقيم:

– سأتبعك إلى أقاصي المعمور... أُحبّك. كان منظره مؤثّرًا، لكنّه فشل في الوصول إليّ. ولا أفاده التوسّل حتّى حدود الدمع. كانت غضبة عارمة تُلهب حنايا الروح، من تأثير كلام أمّه، وتعاليها: البنت مش من مجاويزنا. عبارة تتفوّه بها نساء «الجورة»، فتأتي مثل حكم الإعدام.

قلتُ له، والشفقة عليه تملأ حنايا نفسي:

– ولّى زمان... وخطواتي بعدَت كثيرًا عن دروبك. قم، وعُد إلى أمّك، لتبحث لك عن فتاة ملائمة، وتليق بالمقام.

وانتفض محتجًّا:

– أنا، لا علاقة لي بأقوال أمّي... لا تُحمّليني وزرَ كلامها.

قلتُ بحزم كي أضع حدًّا للحوار:

– لكنّها أمّك؛ أتذكُر حين كانت تناديك من فوق الشرفة؟... لا تزال واقفة هناك. وأنت فوق حصان القصب، وتُناديك.

– أتوسّل إليكِ، باسم حبّنا. قالت دموعه، فازدَدتُ غضبًا:

– أحببتُك فارسًا... انهض ولا تتوسّل لأحد، وابقَ هناك، شامخًا، حيث رفعك حبّي.

***

ودَّعتكَ عند الباب، ووقفتُ أتأمّلك، يا نادر، تخرج، منكّس الرأس محنيّ الكتفين، ولم نعد نلتقي. كانت أخبارك تبلغني أحيانًا، دون أن أطلبها. تُذرّيها ألسُن العابرين، كلّما التقيت أبناء «الجورة». ثمّ علمتُ أنّك تزوَّجت، وأمّك اختارَت عروسك، على المقاس: بنت عائلة، وبينرفع بها الرأس.

هكذا بُثَّت الأخبار.

ومن جهة ثانية، كانت تتسرّب أخبار معاكسة تحكي عن خلاف بينك وبين الزوجة «بنت العائلة» كاد يدفع بزواجكما إلى الطلاق.

لكنّ «الجورة» تبقى قادرة على احتواء أحداثها. وهكذا لم تبلغا الحافّة الأخيرة للنزاع.

وانقضتِ الأيّام، ومعها تلاشت الأحاسيس والانفعالات. وفي دنيا وحدتي وبعادي، رحتُ أبني لنفسي عالمًا بعيدًا عن مداك.

وتجيء الآن، يا نادر وتسأل إن كنتُ راضية؟ وإذا ما حقَّقتُ أحلامي مثلما كنتُ أشتهي؟ وابنتك تراقب، وتُنصت للحوار. والطفل «يُكاغي» وزوجتك في غرفة الاستقبال، بكامل أناقتها وتنتظرك. وأنا؟... بعد

قليل أعود، إلى حيث بنَيتُ لنفسي صومعة الوحدة والعمل البعيد جدًّا عن دنياك.

***

وكانت المركبة في انتظاري، وأنا أُغادر العتبة. مركبة مجنَّحة، بوسعها رفع جبال. حملَتني، ويدُهُ تودّع. وأتأمّلها لحظة، وهي تضغط يدي، ولا تودّ أن تنفصل، وكأنّما تستجدي فرصة لم تَعُد متاحة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

ليلى والذئب 5
الحلقة المفقودة..... 19
الأميرة وظلّها 29
زهرة الثلج 39
الليالي الغجريّة..... 51
دلال..... 63
وارثات الزبد 73
ذاهبة إلى بيروت..... 85
البلبل... صاحب المواويل 105
الراقصة والبهلوان 121
سوق الخان..... 135
صندوق الفرجة..... 151
فتاة الأتلانتس..... 163
حبّةُ البَرَكة 177
بقايا رجل..... 187
موت نخلة..... 197
ثلاث دمعات..... 201
تحوّلات 211
وكانوا يتمتمون..... 223
الأرض المستحيلة 229

telegram @soramnqraa

رفعَت السيّدة يدَيها وأومأَت إلينا جميعًا، كي نصعد الدرجات الفاصلة بيننا. ثمّ دعَتنا للجلوس حولها. وظلّ شعرها حبالًا رماديّة اللون تتموّج حول وجهها، تكاد تُخفي تفاصيله، مستثنية العينين الحادَّتَي النظرات كعينَي صقر.

انتظرنا بوَجل وقد جلَّلَنا الصمت. وملأَ أنفسَنا رهبةً منظرُها، وأنوارُ القمر تنهمر، فتزيدنا صمتًا وخشوعًا.

ولم تَعُد روزينا تلك «الغريبة الأطوار»، المقيمة في عزلة كوخها، تُسامر القطط والعصافير.

لم تَعُد المعتزلة مُقاطِعَة الجنس البشريّ حتّى آخر حدود العلاقة... فقد بدَت، في تلك اللحظات، سيّدةً حكيمةً، رهيبةً، ممتلئةً معرفة، قابضةً على مفاتيح الأسرار.

وتحرَّكَت شفتاها تقصّان علينا حكايةَ الليالي الغجريّة...

من «الليالي الغجريّة»

إملي نصرالله (**أبي راشد**) من الروائيّات الرائدات. عملت في الصحافة، ثمّ غلب عليها الأدب فانصرفت إلى كتابة الرواية والقصّة وروايـة الفتيان والأطفال والسيرة. أكثر ما شغلها هو موضوع الهجرة فكانت فيه رائدة. تُرجِم الكثير من كتبها إلى الإنكليزية والألمانية والدانمركية والفنلندية والتايلندية. لا تزال الصحافة جزءًا من مشاغلها، إضافة إلى الأدب.

ISBN 978-614-438-859-4

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.